8 سورية وحرب فلسطين: الكفاح ضد «مشروع سورية الكبرى» الذي تبنّاه الملك عبد الله

جوشوا لانديس Joshua Landis

الأبحاث الأخيرة في موضوع حرب 1948 ركّزت على الاهتمامات الإسرائيلية. إن الدراسات الاجتهادية خلال العقدين الأخيرين ركّزت على أهمية التحالف بين الصهيونية وشرق الأردن الذي نشأ خلال الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين[1] وكان من شأن فتح محفوظات الوثائق (الأرشيف) الإسرائيلية للباحثين أنّه ثبّتَ هذا النهج من التمحيص، الذي يعرض ميزان القوى في المنطقة في ضوء جديد كلياً[2]. فاليشوف، أي السكّان اليهود في فلسطين، لم يكونوا داوود الذي يقاتل جوليات العربي، حسبما علمنا من هذا النهج. وهذا يعكس جزئياً ميزان القوى العسكرية، ولكنّه يعود أيضاً إلىٰ التفاهمات السياسية التي توصّل إليها الزعماء الصهيونيون، والملك عبد الله

من أجل التوسع في الحجج الواردة في هذا الفصل من الكتاب راجع كتاب جوشوا لانديس ومايكل دوران «الحرب العربية ـ الإسرائيلية سنة 1948. التنافس بين العرب وصنع نظام الدولة الإقليمية» «The Arab-Israeli War of 1948: Inter-Arab Rivalry and the Making of a Regional State system» (برنستون، نيوجيرسي، سيصدر قريباً).

(1) أشهر ما كُتب في هذا الموضوع هو كتاب آفي شلايم «تواطؤ عبر نهر الأردن: الملك عبد الله، والحركة الصهيونية، وتقسيم فلسطين» (أكسفورد ونيويورك، 1988).

(2) آفي شلايم «النقاش حول 1948» المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط IJMES عدد 27 (1995) ص 287 ـ 304.

obeikandi.com

والبريطانيون. لدينا الآن فهم أكثر وضوحاً لحالة تفكّك الوحدة التي كان عليها العرب، وفهم أكثر وضوحاً لسبب عدم وجود إلاَّ القليل مما يجعل «اليشوف» يخشون الجيش الأردني، وإلىٰ أي حد اقترب الصهيونيون من تجنّب الحرب مع الدول العربية كلياً[3]. لقد ركّز «المؤرخون الجدد» على إسرائيل والأردن على حساب الدول العربية الأخرى، التي لا نعرف عنها إلاَّ القليل نسبياً، وليس بالأمر المفاجىء أن الدول العربية كانت هي أيضاً متأثّرة بالحوار السرّي بين عمان وتل أبيب، وبالخطر الذي يمثّله هذا الحوار.

بالنسبة إلىٰ سورية، خطر حوار الملك عبد الله مع الوكالة اليهودية لم يكن كامناً في احتمال أن يساعد هذا الحوار «اليشوف» على أن يصبحوا دولة، وهو احتمال كان معظم الناس يعتقدون أنّه احتمال ضئيل. كان الخطر الحقيقي يكمن في إمكانية إتاحة الفرصة أمام الهاشميين ليكونوا القوة المسيطرة في المنطقة. ومنذ بداية الحرب كان الهمّ الأول للدول العربية هو النزاع بين الدول العربية نفسها[4]. كان جميع القادة العرب يتمنّون بالتأكيد أن يتمكّنوا من إلحاق الهزيمة بالصهيونيين والحفاظ على فلسطين عربية ـ وجميعهم أطلقوا أقوالاً ذات صبغة حربية وتظاهروا كأن في قدرتهم أن يهزموا اليهود ـ ولكنهم لم يمتلكوا خططاً لخوض المعارك ولا القدرة على خوضها. ومنذ البداية، كان الكفاح

(3) توماس ماير «وحدة العمل العربي وقضية فلسطين، 1945 ـ 48» مجلة دراسات الشرق الأوسط العدد 22 (1986) ص 331 ـ 49، ومقالة «غزو مصر لفلسطين 1948» مجلة دراسات الشرق الأوسط» العدد 22 (1986) ص 20 ـ 35.

(4) الأعمال التي تُبحث في موضوع الحرب من منظور المؤثرين من العرب والتي تشارك في بعض الاستنتاجات المعروضة هنا هي أعمال مايكل دوران «القومية العربية قبل عبد الناصر: سياسة صراع القوى في مصر والقضية الفلسطينية» (نيويورك، 1999)، تزفي إيلبيليغ «المفتي الأكبر» (تل أبيب، 1989) وكذلك تزفي إيلبيليغ «لماذا لم تنشأ فلسطين مستقلة في سنة 1948؟» مجلة جيروزاليم كوارتر لي العدد 50 (1989) ص 3 ـ 22، وموشي ماعوز «سورية وإسرائيل: من الحرب إلىٰ صنع السلام» (نيويورك ـ 1995).

يدور حول ميزان القوى في المنطقة وحول مستقبل العالم العربي. تلك لم تكن حرباً خِيضت لتدمير الدولة اليهودية[5].

لقد كان جلياً في دمشق بصورة خاصة أن الصراع كان صراعاً بين العرب أنفسهم. وخلال حرب سنة 1948 في فلسطين، كافح الرئيس شكري القوتلي من أجل حماية استقلال بلده. وكان تقدير القوتلي للأمور أن سورية تواجه أكبر تهديد من ملك الأردن، الملك عبد الله، وليس من اليشوف. إن الملك عبد الله، بعد أن أصبح حاكم شرق الأردن، لم يكتم طموحه إِلىٰ توحيد الأراضي العربية المركزية في سورية الكبرى، التي تشمل فلسطين، وسورية، ولبنان، والأردن. كان هدفه النهائي أن يكون له عرش في دمشق. لقد كان الملك عبد الله مصمِّماً على تحويل مملكته الصحراوية الصغيرة إِلىٰ دولة لها السيطرة في المشرق. وقد خاضت سورية والأردن، منذ حصول كل منهما على الاستقلال، حرباً كلامية حول مسألة سورية الكبرى. وما إن تحقّق الجلاء الفرنسي عن سورية في سنة 1946، حتى شرع عبد الله يروِّج لمشروعه بإثارة فتنة في سورية، وبتشجيع التمرّد داخل الجيش السوري، وتشكيل تحالفات مع البلدان المجاورة لسورية. كان شكري القوتلي في خوف دائم من أن يستغل الملك عبد الله النِّزاع لتنفيذ مشروعه، أي مشروع سورية الكبرى، أولاً بتوسيع مملكته بواسطة ضمّ الأجزاء العربية من فلسطين ثم بتوجيه ضربة إِلىٰ دمشق ذاتها. وكان الرئيس القوتلي يرى أن الحرب في فلسطين وفَّرت للملك عبد الله فرصة مثالية لإسقاط نظام الحكم الجمهوري في سوريا وللاندفاع نحو تحقيق طموحه بإعادة تأسيس حكم هاشمي في دمشق. إن كل مرحلة من مراحل

(5) إن المفكرات اليومية، والمذكرات الشخصية، والمذكرات الرسمية المتزايدة العدد التي كتبها رجال دولة ينتمون إِلىٰ فترة 1948 قد أصبحت الآن منشورة وهي نادراً ما تأتي على ذكر الخطر الذي تمثِّله إسرائيل. إن صفحاتهم حافلة بالحديث عن التناحر بين الدول العربية.

التخطيط السوري للحرب في فلسطين يكون لها معنى عندما نراها عبر نظارات خوف الرئيس القوتلي من عبد الله واحتمال أن يحصل عبد الله على مساندة بريطانية لمشروع سورية الكبرى.

بالنسبة لمصر والمملكة العربية السعودية، كان البلدان يشعران بقلق أكبر من القلق الذي يسبِّبه احتمال إنشاء دولة يهودية صغيرة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وكان سبب هذا القلق هو الخوف من أن يقوم الأردن، متحالفاً مع إسرائيل، والعراق، وتركيا، ومدعوماً من بريطانيا العظمى بتوسيع حدوده. إن تجمعاً قوياً من هذا القبيل كان من شأنه أن يمثِّل نقطة انطلاق للطموحات الهاشمية في المنطقة وأن يغيِّر تغييراً جذرياً ميزان القوى في الشرق الأَوسط. كان هدف مصر الأول هو أن تتخلّص من النفوذ البريطاني. ولكن ما كان لهذا الطموح أن يتحقَّق إذا ما حالف النجاح الخطط الهاشمية التي من شأنها أن تعزّز النفوذ البريطاني في المنطقة. وكان الملك فاروق سيتعرّض لإدانة جماعية كرجل خانع لبريطانيا. أما بالنسبة للملك عبد العزيز بن سعود فإن إمكانية قيام دولة هاشمية أقوى في شمال شبه الجزيرة العربية كانت بدورها مرفوضة، لأن استقلال مملكته سيتعرّض للخطر بسبب الطموحات الهاشمية باستعادة الحجاز. وهذا كان سيرغمه على الاعتماد اعتماداً أشد على جامعة الدول العربيَّة الدونكيشوتية وعلى حماية من قبل بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الأمريكيّة.

أما سورية فإنّها كانت تواجه احتمال أن تتعرّض لأشد الخسارة بسبب التوسّع الهاشمي. فلم تكن سورية تحظى بحماية دولة كبرى، وما إن جلت فرنسا عن سورية في سنة 1946 حتى صارت دمشق في وضع اليتيم سياسياً. ومع أن الرئيس القوتلي كان فخوراً بالحصول على استقلال سورية من فرنسا بدون التوقيع على معاهدة عسكرية مذلَّة (على غرار ما فعل العراق، والأردن، ومصر، مع بريطانيا)، إلاَّ أن ثمن الاستقلال الحقيقي كان فادحاً. فقد كانت

سورية، المعرّضة للخطر من جارتيها الهاشميتين بسبب موقفها المستقل، مضطرّة للتشبث بالحماية التي توفرها لها جامعة الدول العربيَّة. وقد انضمت سورية إِلىٰ مصر والمملكة العربية السعودية لتشكِّل الدول الثلاث معاً كتلة مناوئة للهاشميين.

إن تصميم القوتلي على إيقاف عبد الله عند حدّه يفسِّر سبب حرارة عناقه لجامعة الدول العربيَّة وسبب إصراره على تحويلها من مجرد منظمة سياسية إِلىٰ تحالف عسكري يمكن استخدامه كسلاح ضد الهاشميين. وخوفه من المخططات الهاشمية في فلسطين يفسِّر لنا سبب تقدّمه الصفوف في العمل لتشكيل جيش الإنقاذ، الذي كثيراً ما يترجم إِلىٰ اللغة الإنكليزية بعبارة «جيش التحرير العربي»، وإصراره على وجود هذا الجيش على الأرض السورية، لأنه بوجود هذا الجيش سيتمكّن من تقديم مطلب له في فلسطين وسدّ الطريق على خطة عبد الله لابتلاع فلسطين. وهذا يفسِّر سبب دفعه مصر إِلىٰ زجّ جيشها في قتال مباشر في فلسطين. وهو يفسِّر أيضاً سبب توافقه مع الملك فاروق على رفض خطة برنادوت في صيف سنة 1948. لقد كان من شأن مشروع السلام هذا أن يحول دون حدوث هزيمة عربية كاملة، وأن يحدّ من هروب الفلسطينيين من منازلهم وأن يحدّ كثيراً من حجم الدولة اليهودية. بيد أن مشروع السلام هذا كان من شأنه أن يدخل السرور إِلىٰ نفس عبد الله وإِلىٰ نفوس البريطانيين بالسماح للأردن أن يضم إليه الأجزاء غير اليهودية من فلسطين، والاستنتاج الوحيد الذي يستطيع المرء أن يستخلصه من هذه المعلومات هو أن سياسة سورية كانت في كل مرحلة من مراحلها خلال الصراع على فلسطين موجهة نحو حماية الاستقلال السوري وإحباط مشروع الملك عبد الله أي مشروع سورية الكبرى. فلم يكن اليهود ولا الفلسطينيون في رأس قائمة ما يفكر به القوتلي. كان لسورية همّها الرئيسي وكانت رغبته الكبرى هي الحفاظ على استقلالها الذي ناضل من أجله طوال حياته.

obeikandi.com

عدم ولاء الجيش السوري وعدم كفاءَته

لا يمكن فهم هاجس الهاشميين ومشروع سورية الكبرى لدى الرئيس القوتلي إِلاَّ باعتباره نتاج ضعف سورية الداخلي. فلو كان القوتلي أَكثر وثوقاً بكفاءة جيشه وولائه لما كان قد شعر إِلاَّ بالقليل من الأسباب للخوف من عبد الله. كذلك، لو كان القوتلي يتمتع بسيطرة أكبر على البرلمان السوري أَو لو كان الشعب السوري أقل انقساماً، لكان بإمكان القوتلي أن يتجاهل التحدي الذي يمثّله عبد الله.

إن الجيش الذي وَرِثَهُ الرئيس القوتلي من سلطة الانتداب لم يكن منضبطاً ولا موالياً. وبسبب عدم قدرة القوتلي على إصلاح الجيش وعلى الوثوق به، أبقاه صغير الحجم ومجزأً لكي يحمي حكومته من الانتفاضات أَو الانقلابات العسكرية. وعندما أنشأ الفرنسيون الجيش السوري كانت غايتهم في الأصل أن يقاتل الوطنيين السوريين. وكان كثيرون من عناصره قد تمّ تجنيدهم خلال حكم الانتداب من أبناء الأقليات في سورية ومن سكان الأرياف لأن هؤلاء هم الأقل احتمالاً أن تكون لهم ولاءات وطنية قوية[6]. وبالتالي كان قادة سورية الوطنيون، وهم من السنّة، يخشون هذا الجيش. في سنة 1946، اعترف الرئيس القوتلي لأحد المستشارين بأن «تسعين بالمئة» من ضبّاط الجيش الذين خلفهم الفرنسيون لم تكن عندهم «روح وطنية». ومع أنه طمأن الجنود عند نيل الاستقلال إِلىٰ أنّهم «أبناء هذا البلد» وأن الأمة «فخورة بهم ونسيت الماضي»، فإن القوتلي ألح على مستشاريه «بألا يثقوا بهم»[7]. في أول الأمر راودت

---

(6) ن. أ. بورنقلي، «القوّات الخاصة: التجنيد على أساس ديني أَو عرقي، 1916 ـ 1946» IJMES عدد 25 (1993) ص647.

(7) طه الهاشمي «مذكرات طه الهاشمي» حرّرها خلدون ساطع الحصري، المجلد الثاني (بيروت 1987) ص101. أود أن أشكر مايكل دوران لأن لفت انتباهي إِلىٰ هذه المذكرات القيّمة.

الرئيس القوتلي فكرة تشكيل جهاز عسكري إضافي يسمّى «الحرس الجمهوري» مؤلَّف من مجندين موالين لحمايته وحماية حكومته[8]. ولكن بعد أن رأى أن هذه الخطة ليست عملية، قرَّر أن من الحكمة تمزيق الجيش «الفرنسي»، وإنشاء قوة جديدة من وطنيين مخلصين مبتدئاً من الصفر. لقد كانت هذه مهمة كبيرة تتطلبّ تعاوناً من كادرات موالية ومدرّبة تدريباً جيداً من كبار الضبّاط العسكريين وهذا ما لم يتوفّر للرئيس القوتلي.

عند جلاء الفرنسيين عن سورية في سنة 1946، عيّن القوتلي رجلاً ذا شخصية قوية وحليفاً له منذ زمن طويل، هو نبيه العظمة، وزيراً للدفاع. وما إن بدأ نبيه العظمة بطرد الضبّاط وتنفيذ إصلاحاته حتى انفجرت عاصفة من الاحتجاج ضمن صفوف الضبّاط. وسرعان ما امتدت هذه العاصفة إلىٰ البرلمان، حيث استغلّت المعارضة قضية الضبّاط الغاضبين في مسعى لإسقاط الحكومة[9].

وفي محاولة من القوتلي لإخماد الاضطراب، عمد إلىٰ عزل العظمة قبل انقضاء شهور على تعيينه وأوقف إصلاحاته.

يستذكر ضابط درزي مستاء مما حدث كيف أن القوتلي قلّص حجم الجيش وخسر ما كان الضبّاط يكنّونه له ولحكومته من نيّة طيبة. يقول هذا الضابط:

«كان الجيش مؤلَّفاً في زمن الفرنسيين من 30,000 مقاتل مدرّب، ولكنه

---

(8) المصدر السابق ص102.

(9) خيرية قاسمية «الرعيل الأول: حياة وأوراق نبيه وعادل العظمة» (لندن ـ 1991) ص118. كان نبيه العظمة وزير الدفاع الذي أُقيل من منصبه. المزيد من التفاصيل عن هذا الحدث توجد في مذكرات فرزت مملوك التي لم تُنشر بعنوان «أساء للجيش» ص17. أود أن أشكر أحمد مملوك الذي أتاح لي الاطلاع على مذكرات والده وأوراقه الشخصية، والتي تضمنت هذا المقال عن أسباب انقلاب الزعيم في آذار (مارس) 1949. كان فرزت مملوك نائباً في البرلمان طوال هذه المدة وكان صديقاً لحسني الزعيم.

الآن انخفض إلىٰ 6,000. لقد أصبح قزماً. وقد تحكمت قاعدة واحدة بعملية التسريح وهي: سياسة الانتهازية، والمصلحة الشخصية، والبقاء الفردي. كان ذلك هو السبب الأول والأكبر للاستياء الذي بدأ ينتشر ويتراكم في صفوف الجيش ضد السياسيين الذين أطلقت عليهم تسمية «رجال المرتبة الأولى»: والمقصود بذلك شكري القوتلي (رئيس الجمهورية) وجميل مردم (رئيس الوزراء)، وأحمد الشرباتي (وزير الدفاع بعد عزل العظمة)، وصبري العسلي (وزير الداخلية)، ونماذج أخرى من «العنصر البشري»[10].

قام القوتلي بمحاولات أخرى لإعادة تنظيم الجيش وتجهيزه بالمعدات. وقد توسّل إلىٰ الأمريكيين أن يُرسلوا فريقاً من الخبراء العسكريين للإشراف على إعادة بناء الجيش وتجهيزه بالمعدات والسلاح، ولكن دون جدوى[11]. عندئذ خاطب سويسرة والسويد طالباً منهما إرسال بعثة عسكرية، ومرّة أخرى كان مصير طلبه الرفض[12]. في مطلع سنة 1947 أبلغ الوزير الأمريكي المفوض في

---

(10) فضل الله أبو منصور «أعاصير دمشق» (بيروت ـ 1959) ص 38 ـ 39.

(11) أدركت أمريكا أنها «قد تجد نفسها في وضع محرج، إن لم يكن مستحيلاً، إذا أصبحت الولايات المتحدة متورطة في قضية فلسطين على نحو يزعج سورية». ولذلك أبلغ المسؤولون الأمريكيون الرئيس القوتلي أن ثمة «عدة عقبات خطيرة تمنع إرسال بعثة عسكرية أمريكية» واقترحوا عليه أن يطلب من السويد إرسال بعثة عسكرية، الأرشيف الوطني للولايات المتحدة، أتشيسون، وماتيوس وهندرسون «بعثة عسكرية أمريكية مطلوبة من سورية» (8 أيار ـ مايو 0 1946) 890 D 20/ 5 ـ 846. راجع أيضاً الأرشيف الوطني للولايات المتحدة، من لوي هندرسون إلىٰ مستر ماتيوز «مذكرة: طلب إرسال بعثة عسكرية أمريكية إلىٰ سورية ولبنان» (21 كانون الأول (ديسمبر) 1945) D890 20 بعثات/ 12 ـ 2145، من موز (دمشق) إلىٰ وزير الخارجية الأمريكية (8 أيار ـ مايو ـ 1947) D890 20 بعثات: 5 ـ 847 والأرشيف الوطني للولايات المتحدة، من جورج مارشال (وزير الخارجية الأمريكية) إلىٰ المفوضية الأمريكية (في دمشق) (14 أيار ـ مايو ـ 1947) 890/ 20 بعثات/ 5 ـ 847.

(12) للحصول على بحث واف لمحاولات سورية الحصول على مساعدة عسكرية قبل 1948، راجع جوشوا لانديس «القومية وسياسة الزعامة: انهيار سورية الجمهورية 1945 ـ 1949» (أطروحة دكتوراه، جامعة برنستون، 1997) ص 227 ـ 36.

دمشق حكومته أن المسؤولين السوريين لا يكفون عن سؤاله عن مجيء بعثة عسكرية لأن الحكومة لا تزال «غير مرتاحة لوضع جيشها الحالي المقترن بالقلق من جراء طموحات الملك عبد الله»[13].

لقد اتُّهم الرئيس القوتلي في أحيان كثيرة بأنّه لم يبذل أي جهد لإمداد جيشه بالأسلحة والذخائر والتدريب. هذا الاتهام ليس صحيحاً بالكامل. فهو حاول فعلاً ولكنه حاول فقط في سياق مهمة تدريبية أكبر. ولما كان الجيش يفتقر إِلىٰ هيكلية قيادية تتصف بالكفاءة والولاء، فقد رفض القوتلي أَن يأتمن الجيش على كميات كبيرة من السلاح. إن خالد العظم. الذي كان سفير سورية لدى فرنسا من سنة 1947 وحتى نهاية سنة 1948 عندما استُدعي ليحل محل جميل مردم رئيساً للوزراء في كانون الأَول (ديسمبر) 1948 يصرّ على القول أنّه كان من الممكن شراء الأَسلحة من «الدول الكبرى أَو من دول أُخرى مثل سويسرا وبلجيكا خلال سنتي 1945 و1946 وبداية سنة 1947» أي قبل أن فرضت الدول الغربية حظر السلاح على فلسطين والدول العربية. ويقول خالد العظم إن الرئيس القوتلي بدلاً من بناء الجيش السوري «اكتفى بإلقاء خطب رنّانة واتخاذ مواقف شعبية رخيصة بينما بقي الجيش بدون أَسلحة أَو ذخائر، وبدون تدريب أَو تنظيم، وبدون قيادة موحّدة مؤلَّفة من ضبّاط مخلصين»[14].

---

(13) الأرشيف الوطني للولايات المتحدة، من جيمس موز (دمشق) إِلىٰ وزير الخارجية الأمريكية (8 أيار ـ مايو 1947)، 890، D20 بعثات 5 ـ 847.

(14) خالد العظم «مذكرات خالد العظم» 3 مجلدات (بيروت ـ 1972) المجلد الأول ص1/ 384. أوفد العظم إِلىٰ فرنسا في أيار (مايو) 1947 عندما أصبح جميل مردم رئيساً للوزراء. أمضى معظم وقته محاولاً شراء أسلحة من شركات خاصة. وصلت الشحنة الأولى من الأَسلحة الفرنسية إِلىٰ سورية خلال الشهر الأخير من سنة 1948، بعد ذلك أصبحت فرنسا المصدر الرئيس لتسلح سورية طوال الوقت حتى الصفقة السوفيتية التي توسط فيها العظم في سنة 1956. ويوضح العظم أن يهوديين فرنسيين عضوين في مجلس الوزراء عرقلا كل صفقة سلاح تفاوض عليها مع شركات فرنسية خلال الحرب. مع ذلك يؤكد أنه كان بإمكانه أن يشتري أَسلحة خلال شهوره الأولى في باريس، لو أن جميل مردم سهل له جهوده (ص: 343 ـ 47).

كان القوتلي قد تخلّى عن كل أمل في بناء جيش فعَّال ومخلص خلال الشهور الأولى من سنة 1947. وهو بدافع الخوف من الانقلاب، سعى إِلىٰ شلّ الجيش بإبقائه سيء التجهيز، وسيء التدريب، ومنقسماً على نفسه. لقد أرسل عناصر الجيش الأكثر إثارة للاضطراب إِلىٰ مواقع بعيدة عن العاصمة واحتفظ بالضبّاط الفاسدين والأقل كفاءة في المناصب العليا على أمل أن يؤدي جشعهم وتناحرهم إِلىٰ إحباط المحاولات الهادفة إِلىٰ القيام بانقلاب. وعندما طلب وزير الدفاع الجديد، أحمد الشرباتي، من الرئيس أن يأذن له بتسريح رئيس الأركان ومن يليه في القيادة، الأول لأنه كان فاسداً وغير فعَّال والثاني لأنّه كان كارهاً للأول وكثيراً ما يخالف الأوامر، رفض القوتلي هذا الطلب، وأجاب الشرباتي بإصرار «هذان أفضل من الآخرين»[15]. بوجه هذه القيادة للجيش أثبت القوتلي عدم قدرته على إيجاد حل لمشكلته العسكرية. فلم يكن بإمكانه لا تدمير الجيش ولا إصلاحه. كان يخشى تكبير الجيش ومع ذلك لم يجرؤ على تقليصه. وإذ يئس من إيجاد حل فقد ترك الجيش مجروحاً، وغاضباً وفاقداً للثقة.

وما زاد الأمور سوءاً هو أن عدداً كبيراً من كبار ضبّاط الجيش السوري أجروا اتصالاً مع الملك عبد الله وعملائه في سورية[16]. وقد كُتب الكثير عن

---

(15) الهاشمي «مذكرات» ص156.

(16) مكتب السجلات العامة البريطاني، من كيركبرايد (عمان) إِلىٰ هاو (14 آب ـ أغسطس 1946) وزارة الخارجية البريطانية 371/ 52902/ E9175، يقول في اتصاله «إن ثلاثة مبعوثين من القيادة العليا للجيش السوري.. ينتظرون فرصة لمقابلة غلوب بشأن فكرة قيام سورية الكبرى»، من فوهان ـ راسل (حلب) إِلىٰ سكرايفنر (19 أيار ـ مايو 1947) وزارة الخارجية البريطانية، 371/ 62125. الأرشيف الوطني للولايات المتحدة (سوتلاند) RG 48/ صندوق 16/ 1947، 120/ 7 ـ 800. يتضمن الصندوق عدة برقيات من موز (دمشق) إِلىٰ وزير الخارجية الأمريكية خلال شهري آذار (مارس) ونيسان (أبريل) 1947 وتدعي هذه البرقيات أن «محاولة ستجري في غضون شهر أو نحوه للإطاحة بالحكومة السورية الحالية.. وأن حركة الانشقاق مركزها الجيش السوري (12 آذار ـ مارس 1947)».

وقوع صغار الضبّاط في الجيش السوري تحت تأثير الأحزاب اليسارية الراديكالية، كحزب البعث والحزب الاشتراكي والحزب الشيوعي، هذه الأحزاب التي كانت قد بدأت تلعب دوراً في السياسة السورية آنذاك(17). ومع أن هذا صحيح بدون ريب، فإن أياً من هذه الأَحزاب لم يكن يمثِّل قوة هامة في السياسة السورية قبل سنة 1948. وهي مجتمعة لم تتمكّن من تأمين انتخاب أكثر من نائب واحد في انتخابات سنة 1947، هو أكرم الحوراني زعيم الحزب الاشتراكي العربي. ومع إمكانية أن تصطاد الأحزاب اليسارية الراديكالية سمكاً في المياه العكرة ضمن أوساط صغار الضبّاط، فإنها لم تلق سوى القليل من الجاذبية لدى كبار ضبّاط الجيش. كان الهَمْ الأوّل لمعظم كبار الضبّاط تأمين مناصبهم ولم يكن من السهل أن تغريهم البلاغة الماركسية أو القوميّة الرومانسية. فقد كانوا يتطلّعون إِلىٰ الملك عبد الله للدعم ولإعداد خطة من أجل وضع نهاية لما كانوا يعتبرونه إهمالاً إجرامياً لاحتياجات سورية العسكرية.

أسوأ ما كان يخشاه القوتلي أن يشكِّل ضبّاطه طابوراً خامساً للملك عبد الله. إن محفوظات الوثائق الدبلوماسية البريطانية والأميركية حافلة بالتحذيرات من وقوع انقلاب خلال تلك الفترة. وهذا يصدق أيضاً في مذكرات ومفكرات سياسيين سوريين(18). فقلّما كان يمر شهر في سنة 1947 دون تسليط الضوء على الإعداد لانقلاب، ودون تحذيرات من مشاكل وشيكة. معظم التحذيرات من الإعداد لانقلاب كانت تُنسب إِلىٰ الملك عبد الله وإِلىٰ ما يسميه البريطانيون «الحركة الملكية» في سورية وكان ضبّاط سوريون يقولون إن «ما بين

---

(17) باتريك سيل «الصراع على سورية: دراسة للسياسة العربية بعد الحرب ـ 1945 ـ 1958» «The Struggle for Syria: A Study of post-War Arab politics, 1945-1958» (لندن ـ 1965) ص45 راجع أيضاً الكولونيل (العقيد) محمد صفا «أسرار الانقلابات في سورية: تصحيح للزعيم العلي أكرم الحوراني وغير مطبوع، وبدون تاريخ» ص 52 ـ 55.

(18) للحصول على وصف كامل للتآمر راجع كتاب لانديس «القومية والسياسة» ص 222 ـ 44.

50 بالمئة و75 بالمئة من القوّات العسكرية في سورية ستؤيد انقلاباً عسكرياً وتشكيل سورية الكبرى»[19]. في شهر شباط (فبراير) 1947 أجرى عبد الله «مباحثات مع ممثلي مؤيديه السوريين، وفي تلك المباحثات جرى الحديث عن جدوى القيام بانقلاب مشترك»[20]. بعد ذلك بوقت قصير بدأ أنصار عبد الله في سورية يتّصلون بممثلي بريطانيا في سورية لكسب الموافقة البريطانية على خططهم. وقد رفع القنصل البريطاني في حلب تقريراً عن اجتماع من هذا القبيل على النحو التالي:

«إن توفيق بك غريب، الذي كان ذات يوم مديراً للشرطة في حلب، وهو الآن زعيم حركة سورية الكبرى الملكية في شمال سورية، زارني بتاريخ 14 أيار (مايو) 1947. إنه ليس سياسياً عديم الخبرة، ولكني فقط أعتبر وجهات نظره خطرة جداً بخصوص حتمية حدوث انقلاب عسكري..

«أبدى توفيق بك رأيه قائلاً إن جبل الدروز، والعلويين، والقبائل، ومناطق الريف التابعة لحلب، مثل إدلب، وكفر تخاريم، وحارم، وعدداً من الوجهاء مثل مصطفى بك برمدا، والحاج فاتح مرعشي، مؤيدون بصلابة للحركة الملكية. أما بخصوص الجيش في الشمال، فمع أن عموم عناصره منقسمة على نفسها، إلاّ أنه يحظى بمساندة عدد من الضبّاط أصحاب النفوذ، وذكر في هذا الصدد اسم النقيب (الكابتن) سامي الحناوي (زعيم ثاني انقلاب عسكري في سورية)، وعلم الدين (رئيس مكتب العشائر). ثمة عدد آخر من

---

(19) مكتب السجلات العامة البريطانية، «حركة سورية الكبرى» (10 كانون الثاني (يناير) 1948)، وزارة الخارجية البريطانية، 371/ 61497/ E9137 ص13، من فوهام ـ راسل (حلب) إلى سكرايفنر (19 أيار ـ مايو 1947) وزارة الخارجية البريطانية 371/ 62125، الأرشيف الوطني للولايات المتحدة، (سوتلاند) موز (دمشق) إلى وزير الخارجية الأمريكية (15 آذار ـ مارس 1947) RG84/ صندوق 16/ 1947: 120,7 ـ 800.

(20) مكتب السجلات العامة البريطانية «حركة سورية الكبرى» (10 كانون الثاني (يناير) 1948)، وزارة الخارجية البريطانية 371/ 61497/ E9137.

الضبّاط الذين أعتبرهم متعاطفين سراً ولكنهم يخشون فقدان وظائفهم إذا أعلنوا موقفهم في هذه المرحلة.

«لا مفر من حدوث انتفاضة ملكية إن عاجلاً أو آجلاً وهو يرى أن أربعاً وعشرين ساعة ستكون كافية للقضاء على المقاومة المسلّحة الموالية للجمهورية»[21].

مثل هذه الخطط للقيام بتمرد كانت شائعة خلال السنوات الأولى من استقلال سورية. وكان الرئيس القوتلي مطلعاً تماماً على معظمها. فقد أنشأ شبكة كبيرة من الجواسيس لرصد الحركة الملكية في سورية والمتعاطفين معها من العسكريين. كان الكابتن (النقيب) حبة، رئيس المكتب الثاني السوري «يرى أن أية مشاكل (في سورية) ستكون برعاية بريطانية»، وبناء على ذلك أرسل عملاءه للاجتماع مع عبد الله للتأكّد من أسماء الضبّاط المتفاوضين معه[22]. أبلغه عملاؤه أن العديد من كبار الضبّاط كانوا متعاونين تعاوناً وثيقاً مع ملك الأردن، ومن ضمنهم رئيس الأركان، ونائبه، والزعيم حسني الزعيم، الذي سيحل لاحقاً محل اللواء عطفة في منصب رئيس الأركان وبالتالي يطيح بالقوتلي في آذار (مارس) 1949[23]. وعندما جابه القوتلي هؤلاء الضبّاط شخصياً في موضوع تآمرهم مع عبد الله في سنة 1949، أكّدوا له أنّهم اجتمعوا

---

(21) مكتب السجلات العامة البريطانية، فوهام ـ راسل (حلب) إلىٰ دمشق، «محادثة مع توفيق بك غريب، زعيم حركة سورية الكبرى الملكية في شمال سورية» (19 أيار ـ مايو 1947) وزارة الخارجية البريطانية 371/ 62125.

(22) الأرشيف الوطني للولايات المتحدة (سوتلاند)، جيمس موز (دمشق) إلىٰ وزير الخارجية الأمريكية (15 آذار ـ مارس 1947) 84 ـ RG، صندوق 16، 1947.

(23) هذه القصة رواها منير الريس، الذي كان صديقاً حميماً لوزير الدفاع الشراباتي. كتاب منير الريس «الكتاب الذهبي للثورات الوطنية» (بيروت ـ 1977) ص 426 ـ 430. النقاط الأساسية في هذه القصة يؤكدها أحمد اللحام، الأمين العام لوزارة الدفاع الذي ادعى أن رئيس الأركان عطفة اجتمع شخصياً مع عبد الله وكان المنظم الرئيسي للتحريض على الفتنة بين كبار الضبّاط.

obeikandl.com

مع الملك أَو عملائه كمواطنين سوريين مخلصين لكي يحصلوا منهم على معلومات. ومع أنهم وعدوا بعدم إجراء أي اتصال في المستقبل مع عبد الله، لم يطمئن الرئيس القوتلي أبداً إِلىٰ ولائهم وظلّت المخاوف من المؤامرات الهاشمية تلازمه. أحد الذين كانوا موضع ثقة الرئيس كتب في مفكرته اليومية ما يلي:

«كل شخص مطلع يعرف كيف استحوذت الشكوك على القصر الرئاسي إِلىٰ درجة أن رئيس الجمهورية، استخدم جيشاً من الجواسيس الذين يرسمون له صورة العالم وهذه الصورة لا تؤدي إِلاَّ إِلىٰ تفاقم مشاعره بالقلق وتوهماته. إنه يرتجف عند ذكر اسم شرق الأردن وجيش شرق الأردن وملكه. وهو يتخيّل أن لعبد الله حزباً سرياً هنا»[24].

فعلت الحركة الملكية فعلها كمانعة صواعق للتذمّر المنتشر انتشاراً واسعاً بين العسكريين. أما في نطاق السكان السوريين على اتساعه، فإن حملة الدعاية الرهيبة التي شنّها عبد الله، عبر الصحافة المحلية، كان فعلها كفعل المطر المنهمر، مغذية بذور الانشقاق وعدم الثقة التي كانت مبذورة بوفرة في التربة السورية.

ميول الدروز الانفصالية

كان الدروز في رأس القائمة الطويلة لخصوم القوتلي المحليين، الذين كان يخشى أن يكونوا طليعة غزو عبد الله لسورية. خلال النصف الثاني من سنة 1947 قام الدروز بثورة ضد دمشق، وتوجّه زعماؤهم إِلىٰ الملك عبد الله والبريطانيين طلباً للمساعدة. إن جبال الدروز تقع عند الزاوية الجنوبية الشرقية من سورية بمحاذاة الحدود الأردنية وهي قريبة من فلسطين.. وكان الدروز

(24) عادل أرسلان «مذكرات الأمير عادل أرسلان: المستدرك 1948» تحرير يوسف الايبش (بيروت 1994) الفقرة المدونة بتاريخ 29 أيار (مايو) 1948 ص115، الهاشمي «مذكرات»، الفقرة المدونة بتاريخ 12 كانون الأول (ديسمبر) 1947، ص189.

تحت الحكم الفرنسي يتمتعون بقدر كبير من الحكم الذاتي، وهي ميزة أصرّ الرئيس القوتلي على وضع نهاية لها، وبعد الاستقلال أصبح دمج جبل الدروز ببقية سورية اختباراً حاسماً لقدرة القوتلي على توحيد سورية وإقامة سلطة مركزية فيها. وقد اعترف وزير الدفاع الشرباتي بأن أكبر «بؤرة مشاكل» في سورية هي جبل الدروز[25]. في الانتخابات النيابية سنة 1947 حصل مرشحو الأطرش على فوز كاسح في جبل الدروز ولكن الرئيس القوتلي ألغى نتائج الانتخابات في المناطق للحيلولة دون وصول الأطرش إلىٰ الحكم. إضافة إلىٰ ذلك، قام بتقليص المساعدات الحكومية للمنطقة، وأسوأ من ذلك، حاول إثارة حرب أهلية بين العشائر الدرزية بواسطة تقديم المساعدات والسلاح إلىٰ خصوم الأطرش، وهم عدد من العشائر التي تسمي نفسها «الشعبيين». وبسبب عجز القوتلي عن استخدام العسكريين لفرض الحكم المركزي على مناطق الدروز، لجأ إلىٰ تكتيكه المعتاد، أي محاولة شقّ صفوف خصومه.

كانت نتيجة استراتيجيّة القوتلي إزاء الدروز فشلاً ذريعاً، فقد ثبت أن الزعماء من آل الأطرش كانوا الأقوى والأكثر شعبية مما كان يدرك القوتلي. وهم قضوا علاقات الشعبيين في الشهور الأخيرة من سنة 1947، وقطعوا الاتصالات الهاتفية والبرقية مع دمشق، وقطعوا الطرق المؤدية إلىٰ الجبل. أكثر من ذلك، أنهم هددوا بمنع سيارات الجيش من التحرّك إلىٰ الجبهة الفلسطينيّة ووعدوا بمساعدة البريطانيين في فلسطين مقابل مساندتهم من البريطانيين ضد دمشق. وقد طلبوا من الملك عبد الله أن يضم المنطقة الدرزية إلىٰ الأردن. وحرضوه على الزحف نحو دمشق من أجل تنفيذ مشروع سورية الكبرى[26].

---

(25) الأرشيف الوطني للولايات المتحدة (سوتلاند) جيمس موز (دمشق) إلىٰ وزير الخارجية الأمريكية (15 آذار ـ مارس 1947) 84 ـ RG صندوق 16، 1947، 120,7 ـ 800.

(26) للحصول على رواية كاملة لمشاكل القوتلي مع جبل الدروز راجع جوشوا لانديس في كتاب «الشيشكلي والدروز: الدمج والعناد» محررة من ت. فيليب وب. شابلر =

obeikandl.com

وعندما شرعت سورية بالتوجه إلىٰ الحرب في فلسطين في مطلع سنة 1948، اضطر القوتلي إلىٰ التراجع عن سياسته الدرزية تماماً كتراجعه من قبل عن سياسته الخاصة بإصلاح الجيش. ولم تفلح محاولاته لإصلاح ذات البين مع الأطارشة خلال سنة 1948، في تهدئة خواطر زعماء الدروز. فقد ظلوا يشعرون بالمرارة، وظلوا مصمّمين على الإطاحة برئيس الجمهورية، ولهذه الغاية، كانوا مستعدين لأن يكونوا رأس جسر لضربة يوجهها عبد الله إلىٰ دمشق.

الأردن يطوّق سورية

إن عادل أرسلان، أحد المستشارين المقرَّبين إلىٰ رئيس الجمهورية والذي مثَّل سورية لدى الأُمم المتّحدة خلال سنة 1948، وكان يسعى لأن يكون وزيراً للدفاع خلال الحرب، يصوِّر في مفكرته اليومية تقلّبات «هاجس» عبد الله لدى رئيس الجمهورية على النحو التالي:

«أصبح الخوف من سورية الكبرى تحت حكم عبد الله هاجساً للحكومة السورية.. والوضع الداخلي في سورية ضعيف إلىٰ حدّ أنه يعزز آمال أنصار الملكية بإقناع بريطانيا بوجهة نظر عبد الله القائلة أن الاستيلاء على العرش في سورية سيكون أمراً سهلاً.. شكري (القوتلي) يعرف أن العشائر العربية بدون استثناء هي مع الأمير، وأن جبل الدروز، بفضل الهدايا الوفيرة والألقاب التي أسبغها الأمير على الأطرش وأمثاله، يعارضه بحزم، وأن العلويين يعادون الحكومة، دعك عن سكان المدن والبلدات. ولذلك، إذا مال البريطانيون إلىٰ إدارة الظهر له، فإن حكومته لن تصمد يوماً واحداً إذا قامت ثورة»[27].

= «الأرض السورية: عميات الدمج والتفتيت في بلاد الشام من القرن الثامن عشر إلىٰ القرن العشرين» (شتوتغارت 1998)، ص 369 ـ 395، والفصل الثاني من كتاب لانديس «القومية والسياسة».

(27) عادل أرسلان «مذكرات الأمير عادل أرسلان» تحرير يوسف الايبش، المجلد الثاني (بيروت 1983) ص 578 و661. نشر الايبش مذكرات أرسلان على دفعتين. =

ظل القوتلي يخشى طوال الحرب أن ينفِّذ عبد الله مشروع سورية الكبرى بمساعدة الدروز وربما بتشجيع من ضبّاط جيشه. ومن الإنصاف القول إنه كان يخاف من الأردن أكثر مما يخاف من إسرائيل. وقد جسّ الملك عبد الله نبض الدروز في كل من سورية ولبنان بشأن توحيد مناطقهم ومنحهم قسطاً كبيراً من الحكم الذاتي ضمن سورية الكبرى مقابل أن يساعدوه في إقامة سورية الكبرى[28]. شعر عادل أرسلان بالرعب من جراء قلق القوتلي من الخطر الأردني أكثر من قلقه بسبب إسرائيل. وقد دوَّن في مفكرته اليومية، خلال شهر تموز (يوليو) 1948 ما يلي:

«أخونا شكري أرعبته سورية الكبرى منذ زمن طويل. كان دائم القلق وأصبح نومه متقطعاً بسبب ما انتابه من الكوابيس التي هيأت له الجيش الأردني مكتسحاً دمشق. ولكن عندما نشبت حرب فلسطين مؤكدة حاجة العرب إلىٰ الجيش الأردني وبيَّنت حسنات هذا الجيش، فجأة عمد صديقنا (القوتلي) إلىٰ تشجيع الحاج أمين الحسيني على إعلان وجود دولته في القدس، وسحب من ميدان المعركة كل سوري كال الثناء لجيش عبد الله. أما الآن، وقد بلغه أن سياسته في فلسطين ستجعل عبد الله يقوم بتحرّك في جبل الدروز، فقد عاودته الكوابيس»[29].

كان أرسلان، شأنه شأن كثيرين من السوريين، يعتقد أن موقف العداء للهاشميين يدل على قصر النظر والأنانية. ولم يكن رأيه أن الملك عبد الله بالسوء الذي يراه به القوتلي. وقد كتب في شهر أيار (مايو) 1948 ما يلي:

= ثلاثة مجلدات نُشرت في أوائل الثمانينيات من القرن العشرين. وقد استبعدت منها كل الفقرات المدونة عن سنة 1948، والتي نشرت في عام 1994 لأنها تناولت حرب فلسطين ولعلها كانت شديدة الحساسية سياسياً بحيث استحال نشرها قبل ذلك.

(28) آلان پاپيه «سير الك كيركبرايد وصنع شرق الأردن الأكبر» دراسات سياسية وأفريقية العدد 23 (1989) ص 121 ـ 22.

(29) أرسلان «مذكرات 1948» ص 121 ـ 122.

«مخطئ شكري بك في نظرته إِلىٰ مشكلة فلسطين لأن ما يريده عبد الله ليس فقط توسيع مملكته شرقاً أو غرباً. فهو إذا تمكّن من إنقاذ القدس بجيشه والمشاركة في تدمير تل أبيب فليكن وليأخذ فلسطين. . إن شرف الأمّة العربية أكبر من العروش ورئاسات الجمهورية»(30).

كان أرسلان مدركاً أن سورية غير قادرة وحدها على الدفاع عن فلسطين. وهو في مفكرته اليومية تأسّى مراراً على ضعف سورية ووبخ رئيس الجمهورية لعدم قيامه بأي عمل يعزّز الجيش. إحدى الفقرات كتبها في شهر أيلول (سبتمبر) 1947، وقال فيها:

«مسكينة فلسطين، ومهما قلت بشأن الدفاع عنها، يظل قلبي يجيش كالبركان لأني لا أستطيع إقناع أحد ذي مكانة هامّة في بلدي أو في بقية البلدان العربية بأنّها تحتاج أي شيء أكثر من الكلمات. . وبما أن جيشنا صغير وفقير في معداته، لا يمكننا أن نصمد في وجه القوّات الصهيونية إذا قرّرت فجأة أن توجّه ضربة إِلىٰ دمشق. سيصل بي الأمر إِلىٰ أن نستغيث بالقبائل البدوية للقتال ضد هذه القوّات»(31).

كان اعتقاد أرسلان أنه لما كان الجيش الأردني هو الأداة الوحيدة القادرة على إنقاذ فلسطين فينبغي لسورية أن ترضخ للملك عبد الله. ولكن القوتلي كان يعتقد عكس ذلك. بالنسبة له، استقلال سورية أهم من فلسطين وعبد الله هو الخطر الأكبر.

كانت لدى شكري القوتلي أسباب وجيهة للخوف من مشروع سورية الكبرى الذي يطرحه عبد الله. ليس فقط أن سورية ضعيفة، بل إن الجيش

---

(30) المصدر السابق ص 109 ـ 110.

(31) أرسلان «مذكرات» المجلد الثاني، الفقرة المدونة بتاريخ 10 أيلول (سبتمبر) 1947، ص 800 ـ 801.

obeikandi.com

الأردني كان أفضل جيش في المنطقة. وهذا الجيش بقيادة ضبّاط بريطانيين ومدرّب تدريباً جيداً ويمكن الاعتماد عليه. وقد اعترف رئيس وزراء مصر، النقراشي باشا، بأن الجيش الأردني متفوّق على كل من الجيش المصري والجيش السوري، عندم اقترح في شهر تشرين الأوَّل (أكتوبر) 1947 أن تشتري جامعة الدول العربيَّة الجيش الأردني من الأردن ليتولّى حماية فلسطين[32]. والأمر الذي أقلق القوتلي بالقدر ذاته أن الأردن كان يطوِّق سورية بسلسلة من الأحلاف. فقد وقّع عبد الله معاهدتين مع تركيا والعراق في سنة 1947. كان عبد الله ينشد من تركيا مساندتها لمشروع سورية الكبرى مقابل تنازل كل مطالب العرب في لواء إسكندرونة، الذي ضمته تركيا إليها بسلخه عن سورية في سنة 1939. وفي شهر نيسان (أبريل) أعلن عبد الله عن معاهدة «أخوة وتحالف» مع العراق. ومنذ زمن طويل سعت المملكتان الهاشميتان إِلىٰ تشكيل اتحاد فدرالي. وكان عبد الله مصمِّماً على متابعة السعي لقيام تعاون وثيق بين المملكتين الهاشميتين لضمان نجاح مشروع سورية الكبرى. لقد أوضح أحد المسؤولين الأمريكيين أن «ما يرمي إليه الملك عبد الله هو إعادة توحيد سورية في اتحاد فدرالي مع العراق». وكان الهدف أن يقام هذا الاتحاد «على أساس وحدة البيت الهاشمي والأحادية القوية والأساسيَّة للأماني القوميّة»[33]. ووقَّع العراق بدوره معاهدة رسمية مع تركيا. إن تعدد المعاهدات الهاشمية التي عقدت في سنة 1947 أقلق الرئيس القوتلي الذي رأى في هذه المعاهدات مخططاً شريراً يستهدف بلده. وهو لم يكن وحيداً في مخاوفه. فوزير خارجية الولايات المتحدة جورج مارشال ارتاب هو أيضاً بأن «المعاهدات هي انعكاس

(32) دوران «العروبة» ص 113 ـ 116.

(33) العلاقات الأجنبية للولايات المتحدة 1947 المجلد الخامس (واشنطن العاصمة 1971)، من السفير وادسورث (بغداد) إِلىٰ وزير الخارجية الأمريكية (11 حزيران ـ يونيو 1947) ص749.

لسياسة عليا للحكّام الهاشميين بمعزل عن جامعة الدول العربيَّة وبموافقة أَو عدم موافقة بريطانيا»[34]. وأبدى وزير الخارجية الأمريكي قلقه من عزم الهاشميين على السير قُدماً في مشروع سورية الكبرى.

بالنسبة للقوتلي، كانت مسألة سياسة بريطانيا تجاه مشروع سورية الكبرى أمراً بالغ الأهمية. وكان اعتقاده هو «أن عبد الله يمثِّل الخراف وبريطانيا تمثِّل الراعي» في أمور السياسة العليا. ومع أن القوتلي كان يشاكس المسؤولين البريطانيين في مسألة إسرائيل الكبرى، ملحّاً عليهم أن يشجبوا المشروع بوضوح وبأكمله، فقد رفض البريطانيون أن يخفِّفوا من القلق السوري، مردّدين عبارتهم القائلة: «إن موقف حكومة صاحبة الجلالة هي التزام الحياد التام»، وأن الأمر هو «حصراً يخص شعب ودول المنطقة». هذه الصِّيغ المبتذلة لم تفعل شيئاً سوى «تشجيع عبد الله على المناداة بسورية الكبرى» على حد قول وزير الخارجية الأمريكي جورج مارشال[35]. ثمة عامل آخر أوحى بأن عبد الله قد يكون الوسيلة التي اختارتها بريطانيا لإعادة تأكيد نفوذها في المشرق، هو أن العراق ومصر رفضا تجديد معاهدتيهما العسكريتين مع بريطانيا، بسبب الاحتجاج الشعبي على المعاهدتين. الأردن وحده كان مستعداً وتوّاقاً للتمسّك بترتيباته الدفاعيَّة مع لندن.

تحالف سورية مع المملكة العربية السعوديَّة ومصر

انبثقت سياسة سورية تجاه فلسطين مباشرة من سياستها الرامية إِلىٰ احتواء الأردن. في شهر آب (أغسطس) 1947 بدأ القوتلي محاولته لتشكيل حلف عسكري بين سورية، والمملكة العربية السعوديَّة ومصر. كان المحرِّك المباشر

(34) المصدر السابق. من وزير الخارجية الأمريكي مارشال إِلىٰ السفارة في بغداد (12 حزيران ـ يونيو 1947) ص 748 ـ 49.

(35) المصدر السابق، من وزير الخارجية الأمريكي مارشال إِلىٰ المفوضية الأمريكية في المملكة العربية السعودية (26 تموز ـ يوليو 1947) ص752.

لمسعى القوتلي الرامي إِلىٰ حلف عسكري ضد الهاشميين هو تحوّل في حملة عبد الله الرامية لتحقيق سورية الكبرى . . فبعد أن ظهر المرشحون المؤيّدون لمشروع سورية الكبرى في مظهر باهت عندما جرت الانتخابات النيابية السورية في صيف سنة 1947، قرَّر عبد الله أن يضاعف من تدخّله المباشر في سياسة سوريا الداخلية. ففي الرابع من شهر آب (أغسطس)، أذاع كلمة دعا فيها إِلىٰ إقامة «مجلس تأسيسي لتقرير الإجراءات اللازمة لتوحيد سورية الكبرى والعراق»[36]. وتأكيداً لاستعجال مطلبه، أوفد عبد الله رئيس ديوانه لنقل رسالة إِلىٰ القوتلي شخصياً طالب فيها بإقامة المجلس التأسيسي. وقد أرسل رسائل مماثلة إِلىٰ كل عضو من أعضاء البرلمان السوري.

شكّلت تصرفات عبد الله تهديداً مباشراً لسورية، فسارع القوتلي إِلىٰ إيفاد سكرتيره الشخصي الذي لن يلبث أن يصبح وزير خارجيته، محسن البرازي إِلىٰ المملكة العربية السعوديَّة ومصر لكسب تأييد ملكيهما لعقد تحالف مناوئ للهاشميين. سلّم البرازي رسالة القوتلي إِلىٰ الملك عبد العزيز بن سعود طالباً ردّاً جدياً على عبد الله، ذلك أن سورية لن تلبث أن تعلن أن الأردن جزء من سورية ويجب أن تضمه إليها كجمهورية بعيداً عن أي تحالف مع دولة أجنبية. وكان طلب القوتلي من الملك عبد العزيز هو أن يعلن نفس البيان بواسطة الإذاعة. وطلب أيضاً من السعودية أن تدفع العشائر الأردنية إِلىٰ الثورة. ولهذه الغاية طلب من السعودية أن تحرِّك قواتها نحو الحدود الأردنية وأن تعلن بالتضامن مع سورية، أن معان والعقبة هما أرض سعودية، بحيث يمكن التحريض على إعادتها فوراً[37]. وافق العاهل السعودي على إصدار بيان حول سورية الكبرى يكون بالتنسيق مع سورية. إضافة إِلىٰ ذلك ذكر أن جميع العشائر الأردنية تحتاج إِلىٰ المال لكي تتحرّك. غير أنَّه في موضوع معان والعقبة، ادّعى

---

(36) محسن البرازي «مذكرات محسن البرازي، 1947 ـ 1949» (بيروت 1994) ص15.

(37) المصدر السابق ص 18 ـ 19.

Obeikandi.com

أن الخلاف حولهما تتوسّط فيه بريطانيا، مضيفاً أن البريطانيين هم أصدقاء المملكة العربية السعوديَّة. وأوضح أنه غير مستعد لتخريب علاقاته مع بريطانيا كرمى لسورية. وعندما ألح البرازي، اعترف عبد العزيز أنه يتفق مع القوتلي في أن بريطانيا هي وراء زيادة تحريض الملك عبد الله بشأن سورية الكبرى. وقال مفسِّراً هذا الموقف أنه يعتقد «أن البريطانيين يريدون الانتقام» من رفض مصر توقيع معاهدة معهم. وكانت وجهة نظره هي أنّه كلما رفضت مصر التعاون مع بريطانيا يعمد عبد الله والهاشميون إِلىٰ السير قُدماً في خططهم بشأن سورية الكبرى، هذه الخطط التي يعتقد السعوديون والسوريون أنها مرتبطة بالسياسة البريطانية العامة في المنطقة. وقد أصرّ العاهل السعودي على أن مشروع عبد الله هو في حقيقته مؤامرة صهيونية ـ إمبريالية وأن هذا الأمر يجب فضحه في الحملة الدعائية المشتركة ضد الهاشميين(38). وعندما سُئل إن كان من الممكن فعلاً أن يستخدم الملك عبد الله الجيش الأردني للاستيلاء على سورية، وهل باستطاعته الاعتماد على قائد جيشه البريطاني، غلوب باشا، لتنفيذ أوامره وليس أوامر بريطانيا، رفض الملك عبد العزيز أن يجيب عن هذا السؤال. وبدلاً من الإجابة وجّه سؤالاً إِلىٰ البرازي عن مشاكل سورية الداخلية وبصورة خاصة هل بمقدور سورية أن تفرض سيطرتها على الدروز. وكانت نصيحته إِلىٰ الحكومة السورية أن تدفع مالاً إِلىٰ زعماء عائلة الأطرش على غرار ما فعلت في الماضي من أجل تهدئتهم. وعلى مدى بضعة أيام من المباحثات، كان الجانب السعودي لا يفتأ يعود إِلىٰ السؤال عن مشاكل سورية الداخلية، منوهاً للبرازي بأن على سورية أن ترتّب أمورها الداخلية قبل أن تطلب من حلفائها الإقدام على مجازفات.

في نهاية المحادثات أعلن البرازي أن القوتلي يرغب في توقيع معاهدة عسكرية للدفاع المشترك مع المملكة العربية السعوديَّة إذا وافق الملك. تمتم

---

(38) المصدر السابق ص21.

عبد العزيز قائلاً: إن معاهدة من هذا القبيل سابقة لأوانها. وقال إنه يجب أولاً أن توقّع مصر اتفاقيتها مع بريطانيا، وثانياً يجب التفاوض على الاتفاقية المطلوبة عبر جامعة الدول العربيَّة وليس كترتيب مستقل. وقال عبد العزيز «لا أريد أن أعطي أعداءنا عذراً للانسحاب من الجامعة». وعندما أصرّ البرازي على أن الحلف المطلوب ليس موجهاً ضد الجامعة، وإنما هو فقط للرد على المعاهدة العراقية ـ الأردنية ولإظهار وحدة الهدف بين العربية السعودية وسورية، ردّ العاهل السعودي قائلاً «التفاهم بيننا أقوى من أية معاهدة». إضافة إلىٰ ذلك أوضح أن مصر ستغضب إذا لم تنضم إلىٰ المعاهدة. أما إذا انضمت مصر ستعتقد بريطانيا أن التحالف موجّه ضدها ما دامت المشكلة المصرية بدون حل. هكذا أُفحم البرازي. فالملك عبد العزيز لن يعرِّض للخطر علاقاته مع بريطانيا كرمى لسورية بتوقيعه معاهدة ضد الهاشميين. واقترح الملك على البرازي أن يفاتح أولاً الملك فاروق في فكرة المعاهدة.

سافر البرازي إلىٰ مصر، حيث قابل الملك فاروق في 25 آب (أغسطس) 1947. كتب البرازي محضراً لمحادثاته في مصر بتفصيل كبير[39]. وعلى غرار محادثاته مع الملك عبد العزيز لم يرد ذكر الصهيونيين أَو القضية الفلسطينيَّة إِلاَّ لماماً في مباحثاته مع الملك فاروق. بل دار الحديث كلياً حول نيّات الملك عبد الله وبريطانيا وحول ما يمكن للدول العربية الأخرى أن تفعله لإيقاف خططهما التوسعية. وقد رفض الملك فاروق، شأنه شأن ابن سعود، أن يوافق على عقد تحالف عسكري مع سورية بالرغم من أن البرازي بذل قصارى جهده لإقناع فاروق بأن عبد الله مستعد وقادر على استخدام القوة ضد سورية وأنه سيذهب إلىٰ أبعد مدى من أجل تحقيق أهدافه التوسعية. وقد أبلغ البرازي الملك فاروق أن الملك عبد العزيز يشاطر سورية قلقها من الملك عبد الله وأنه «أمضى عدة ليال مؤرقاً بسبب هذه المشكلة». وقال إن العاهل السعودي «يعتبر

(39) المصدر السابق ص 44 ـ 53.

دخول آل الشريف إِلىٰ سورية تهديداً مباشراً لبلده.. لأنهم عندئذ سيتحوّلون لمهاجمته»[40]. وبالرغم من توسلات البرازي إِلىٰ الملك فاروق من أجل توقيع تحالف عسكري مع سورية والمملكة العربية السعوديَّة، قال الملك إنّه الآن في خضم مفاوضات دقيقة مع البريطانيين ولا يملك أن يستفزهم في هذا الوقت. وقال أيضاً إن توقيع معاهدة رسمية «أمر سابق لأوانه». ورأى أنه بدلاً من ذلك ينبغي لسورية، والمملكة العربية السعوديَّة، ومصر، ولبنان، إعداد اتفاق «شفهي» بشأن تحالف سياسي في الاجتماع القادم لجامعة الدول العربيَّة المقرّر عقده في بيروت في شهر تشرين الأوَّل (أكتوبر)[41]. وقال فاروق أنه يتّفق مع البرازي في «الملك عبد الله، وعبد الإله، ونوري السعيد هم أدوات طيّعة ينفِّذون أهداف بريطانيا في القضية المصرية وفي فلسطين وفي مسألة سورية الكبرى». وقال أيضاً إنه مقتنع بأن عبد الله يتعاون مع الصهيونيين ألد أعداء العرب. وقال فاروق بإصرار أنه بسبب خيانة عبد الله فأهم خطوة تتخذها سورية هي «أن تفضح في بياناتها العلنية الوجه الصهيوني ـ الإمبريالي لمشاريع عبد الله»[42].

حقيقة إن سياسة الرئيس القوتلي الفلسطينيَّة كان دافعها الخوف من عبد الله قد بدت بوضوح تام خلال رحلة محسن البرازي الثانية إِلىٰ المملكة العربية السعوديَّة ومصر في مطلع كانون الثاني (يناير) 1948. كان القوتلي يأمل أن يؤدي تزايد الخطر في فلسطين إِلىٰ ضمان نجاح مهمة البرازي الرامية إِلىٰ توقيع معاهدة عسكرية ضد الهاشميين في شهر كانون الثاني (يناير) بعد أن كانت المحاولة الأولى قد فشلت في شهر أيلول (سبتمبر). وقد أراد القوتلي أيضاً من البرازي أن يقنع كلا الملكين بالوفاء بالتزاماتهما نحو جامعة الدول

(40) المصدر السابق ص46.

(41) المصدر السابق ص 52 ـ 53.

(42) المصدر السابق ص48.

obeikandl.com

العربيَّة بتوفير الأَسلحة والدعم المالي لجيش التحرير العربي[43]. ولخيبة أمل القوتلي رفضت المملكة العربية السعوديَّة ومصر عن الوفاء بالتزاماتهما بتقديم المال والأَسلحة إِلىٰ جيش التحرير العربي. وكان إيفاد البرازي يهدف إِلىٰ طلب مساعدتهما.

ومن أجل استرضاء العاهل السعودي بدأ البرازي توسلاته بالقول إن شكري القوتلي هو رمز الصداقة للأسرة السعودية. وتابع كلامه قائلاً:

«شكري (القوتلي) هو رمز المعارضة للهاشميين ولطموحاتهم. وهو الضامن الوحيد لاستقرار النظام الجمهوري القائم حالياً في سورية وهو حامي البلد من مؤامرات الملك عبد الله والهاشميين. فإذا قُدِّر له أن يسقط من منصبه، قدّر الله، ستواجه سورية أشد خطر قاتل من المؤامرات الإِنكليزية ـ الهاشمية. ولا أحد غيره يستطيع الوقوف في وجههم»[44].

أصرّ البرازي على أن خطة عبد الله لتنفيذ مشروع سورية الكبرى «ستكون أقرب إِلىٰ التحقيق إذا ما نفّذ مشروع التقسيم، لأن الأردن سيحصل على الجزء العربي». وبمجرد أن ينجح في ذلك لن يتوقف عبد الله والبريطانيون عن الإطباق على سورية. تولى الأمير سعود نجل الملك عبد العزيز الردّ على تحذيرات البرازي بعد أن انسحب الملك بدون أن يُلزم بلده بأية خطة عمل واضحة، فقال الأمير سعود: «هذا بالضبط ما حدا بي إِلىٰ الإلحاح على الوفاء بواجبنا نحو فلسطين. كان سمو الأمير متردّداً خوفاً من أن يؤدي إرسال المساعدة المالية والأَسلحة إِلىٰ استفزاز عبد الله فيقدم على تنفيذ خططه»[45].

---

(43) توماس ماير «وحدة العمل العربي» ص341.

(44) البرازي «مذكرات» ص63.

(45) المصدر السابق ص 65 ـ 66. كان عبد العزيز غاضباً من القوتلي خلال هذا الاجتماع لأن البرلمان السوري رفض إقرار مشروع قانون يسمح ببناء خط أنابيب أمريكي ينقل النفط السعودي عبر سورية. وكان القوتلي قد وبخ علناً العاهل السعودي =

طمأن الأمير سعود البرازي إلىٰ أنّه آن الأوان لكي تشكّل المملكة العربية السعوديَّة، وسورية، ومصر حلفاً عسكرياً وأن شقيقه الأمير فيصل، سيسافر إلىٰ مصر لتمهيد الطريق لقيام تحالف مع الملك فاروق[46]. وحشدت السعودية أيضاً عدداً من الجنود على الحدود الأردنية لضمان وصول رسالتهما بوضوح إلىٰ عبد الله. وافق الملك فاروق، من جانبه، على «أن تشكل مصر، والمملكة العربية السعوديَّة، وسورية، ولبنان، كتلة دفاع مشترك» وقال إنه سيحذر الملك عبد الله من توقيع أي شكل من أشكال المعاهدة مع البريطانيين قد تُلحق الضرر بموقفه». لدى سماع البرازي هذا الكلام، صار بإمكانه أخيراً أن تسترخي أعصابه وأن يطمئن إلىٰ أن سورية لم يعد هناك سبب لخوفها من الإنكليز والعراقيين، الذين كانوا لتوّهم قد اتفقوا على معاهدة جديدة[47]. ومع أن المعاهدة الإنكليزية ـ العراقية أعلنت، لكنها بقيت غير مبرمة في سنة 1948 بسبب المظاهرات الضخمة التي تفجّرت في بغداد وتسبَّبت في سقوط الحكومة.

مع نهاية شهر كانون الثاني (يناير) 1948، أخذت الكتلة الهاشمية و«الحلف الثلاثي»، وهو الاسم الذي أُطلق على الكتلة المؤلَّفة من مصر، والمملكة العربية السعوديَّة، وسورية، شكلهما الرسمي[48]. إن إقرار خطة التقسيم كان المحرِّك لإعطاء هذين التحالفين صفة رسمية. وقد عملت سورية عمل المحرِّض، فدفعت مصر والمملكة العربية السعوديَّة إلىٰ الالتزام بمعارضة

= بسبب استمراره في التعامل التجاري مع الولايات المتحدة. وقد قال الملك للبرازي إنه لا يحب المحاضرات التي يلقيها عليه القوتلي حول الوطنية وخاصة أن القوتلي كان يتوسل للحصول على مساعدة السعودية ضد عبد الله. وقد تركت مهمة طمأنة الجانب السوري إلىٰ أن المملكة العربية السعودية ستساعد سورية، إلىٰ الأميرين سعود وفيصل.

(46) المصدر السابق ص67.

(47) المصدر السابق ص70.

(48) راجع دوران «العروبة» ص6.

تقسيم فلسطين. أما خطة عبد الله التي كانت ترمي إِلىٰ تجنّب الحرب وضم الجزء العربي من فلسطين، حيث كانت ترابط قوّاته، برعاية بريطانية إِلىٰ الأردن، فإِنَّها أرغمت القوتلي على أن يقود معارضة التقسيم باعتباره خطراً مباشراً على استقلال سورية. لقد حاجج المؤرخون العرب بأن سورية مارست هذا الدور القيادي بسبب تراثها الخاص كموطن العروبة وقلبها النابض[49]. لا شك في أن هذا صحيح. نظمت الأَحزاب السورية، اليسارية منها واليمينية تظاهرات متتالية للمطالبة بالحرب وزيادة العمل من جانب القوتلي والحكومة. وفي ربيع سنة 1948 شكَّلت الأَحزاب وحدات مستقلّة من المتطوعين وأرسلتها إِلىٰ فلسطين. وعلى حد قول محسن البرازي لدبلوماسي أمريكي في نيسان (أبريل) 1948: «الرغبة الشعبية في الحرب لا تُقاوَم»[50]. وما كان باستطاعة القوتلي أن يتجاهل الرأي العام إِلاَّ على حساب هلاكه. من السهل أن ننسى أن سورية كانت في ذلك الحين تطبق الديموقراطية وأن برلمانها، شأنه شأن الشعب، طالب الحكومة مطالبة صاخبة بخوض الحرب في فلسطين لإبقائها عربية.

نائب واحد في البرلمان السوري، هو فرزت المملوك، عارض الذهاب إِلىٰ الحرب في فلسطين، وهذا النائب أمضى في ما بعد سنوات في السجن بسبب تعاطفه مع العراق وبريطانيا. وقد وصف مملوك في مذكراته التي لم تُنشر، المزاج في البرلمان بتاريخ 27 نيسان (أبريل) 1948، عندما نُوقش لأول مرة اقتراح خوض الحرب. أمام البرلمان تجمعت جماهير المتظاهرين لتهتف داعية إِلىٰ الحرب. كتب مملوك في مذكراته ما يلي:

---

(49) راجع على سبيل المثال المقدمة التي كتبتها خيرية قاسمية لمذكرات البرازي.

(50) الأرشيف الوطني للولايات المتحدة، من مينجر (دمشق) إِلىٰ وزير الخارجية الأمريكي «المتظاهرون في دمشق يطالبون بتدخل الجيش السوري في فلسطين» (27 نيسان ـ أبريل 1948) 890 D.00/484912648.

«كان لصراخهم وهتافاتهم تأثير عميق في مناقشات مجلس النوّاب، لا سيما وأن النواب كانوا منقسمين إِلىٰ ثلاث مجموعات: المجموعة الأولى، كانت مؤلّفة من النوّاب الذين تأججت مشاعرهم الوطنية بقدر تأجّج أصوات المتظاهرين التي كنا نسمعها من الخارج. وكانت المجموعة الثانية مؤلَّفة من (الأتباع) الذين يتبعون بصورة آلية الآخرين في كل الأمور. وكيف سيصوّتون..؟. أما المجموعة الأخيرة، فكانت تضم النوّاب المخضرمين الذين لا يمكنهم معارضة الحكومة في مثل هذا الأمر الجلل خوفاً من الأصوات التي كانوا يسمعونها مجلجلة في الخارج. وبسبب ذلك اقتصر النقاش على المجموعة الأولى. وهؤلاء أفصحوا عن وجهات نظرهم بخطب عاطفية ناريَّة دون أي اعتبار للشر الذي كانوا يسوقون البلد إليه.

«أنا لم أكن منتمياً إِلىٰ أيّة من هذه المجموعات، والحمد لله، بسبب قناعتي بأننا لم نكن مستعدين استعداداً كاملاً لإنقاذ فلسطين. كنت أحاول إنقاذ فلسطين بالأعمال، لا بالكلام، وليس بالشعارات، والخطب، والمظاهرات. وقناعتي كانت مبنية على دراسة متأنّية للحقائق التي جمعتها من إخواني، المتطوعين في جيش التحرير ومن أصدقائي في صفوف ضبّاط الجيش..»(51).

فرزت مملوك كان الصوت الوحيد الملتزم جانب الحذر في البرلمان السوري. وقد شرح لماذا يجب على سورية تأجيل خوض الحرب ريثما تكون قوّاتها العسكرية مستعدة وتتحسّن علاقاتها مع الدول العربية المجاورة ومع

---

(51) فرزت مملوك «الارتجال في إنقاذ فلسطين»، لم يُنشر وبدون تاريخ ص19. في سنة 1957 حوكم فرزت مملوك هو وحسن الأطرش وعدنان الأتاسي وكثيرون غيرهم من السياسيين السوريين الموالين ودينوا بالخيانة بتهمة التآمر مع العراق للإطاحة بالحكومة السورية الموالية لمصر وتوحيد البلدين في عام 1957. وقد هرب فرزت مملوك إِلىٰ لبنان حيث بقي حتى مطلع الستينيات من القرن العشرين وعندها عاد إِلىٰ سورية. وعقب انقلاب 1966 سجن في تدمر وبقي في السجن عدة سنوات قبل أن يوضع في الإقامة الجبرية في دوما حيث أمضى الخمسة عشر عاماً الأخيرة من حياته يكتب مذكراته.

بريطانيا، ووصف مدى ضعف الوضع العربي ومدى عدم استعداد الجيش السوري، وختم كلامه على النحو التالي:

«نحن والبلدان العربية الأُخرى يجب أن نتريث بانتظار جولة أُخرى ومناسبة أُخرى نكون عندها مستعدين لإنقاذ فلسطين الحبيبة. وإلاَّ فإن وضعنا الحقيقي سينكشف وستكون العواقب وخيمة.

«إذا كان لا بدّ من أن نخوض الحرب تنفيذاً لقرار اللجنة السياسية العربية، فإني أقترح وجوب توصلنا إِلىٰ تفاهم مع بريطانيا بشأن دخولنا في الحرب لأن أقوى الجيوش العربية التي يجب أن نعتمد عليها في الحرب ـ أي جيوش مصر، والعراق، والأردن ـ خاضعة لأوامر بريطانيا ووجهات نظرها. إضافة إِلىٰ ذلك يجب علينا أن نسوّي أمورنا مع الجارة تركيا للاستفادة من إسلامها ومن نفوذها الدولي المعروف جداً ومن قوّتها. وإذا فشلنا في كل ذلك، فلن تجلب لنا الحرب سوى الكارثة والشر المستطير لشعب فلسطين العربي ولسائر البلدان العربية»[52].

ما إن تفوّه مملوك بهذه الكلمات، حتى هتف شيوخ العشائر بصوت واحد: «نحن موافقون على كلام فرزت». عندئذ خيّم على القاعة صمت مطبق لم يقطعه سوى إعلان نائب رئيس المجلس، بإشارة من رئيس الوزراء، رفع الجلسة إِلىٰ اليوم التالي. انتحى رئيس الوزراء مردم بالنائب مملوك جانباً وهو يغادر بناء البرلمان، وأصرّ على أن يكون التصويت في الغد بالإجماع على دخول الحرب قائلاً له: «لو كنت تعرف، يا أخي، الأبعاد التي لا تخطر في البال، التي اضطرنا شكري بك وأنا للذهاب إليها من أجل إقناع البلدان العربية بدخول الحرب، لما عارضت طلبي»، وقال رئيس الوزراء شارحاً «إن الصالح العام يتطلّب ذلك»[53].

---

(52) المصدر السابق ص21.

(53) المصدر السابق ص21.

إن التصويت بالإجماع على إرسال الجيش السوري إِلىٰ فلسطين لا يترك مجالاً للشك في أن الرأي العام أدَّى جانباً هامّاً من مهمة إقناع القوتلي بالذهاب إِلىٰ الحرب ولكنه لم يفعل إِلاَّ القليل في محاولة تثقيف الجماهير وجعلها تتجه إِلىٰ الاعتدال وتفهم حقائق ضعف سورية وعدم استعدادها. مهما يكن من أمر، فإن المذكرات والمفكرات اليومية العديدة التي نُشرت حتى الآن، لا تترك مجالاً للشك في أن هدف القوتلي الرئيسي من الإصرار على جامعة الدول العربيَّة بالتدخّل في فلسطين كان حماية سورية من مشروع سورية الكبرى الذي يرعاه عبد الله.

سورية وجيش التحرير العربي

أسباب عديدة جعلت سورية تنشئ جيش التحرير. فقد كان الرئيس القوتلي يعرف أن الجيش السوري لم يكن مستعداً لحرب كبيرة، وأنّه من الأسلم كثيراً لسورية أن تحاول ممارسة تأثيرها على الوضع في فلسطين ببناء قوة تمولها وتسلّحها جميع البلدان الأعضاء في الجامعة العربية. وكان على مصر أن تدفع 42 بالمئة من التكاليف، وسورية ولبنان 23 بالمئة، والمملكة العربية السعوديَّة 20 بالمئة، والعراق 15 بالمئة المتبقية. كان من شأن ذلك أن ينقذ سورية من تعريض جنودها للهزيمة، لأن الهزيمة كانت ستجعل البلد عرضة لهجوم من قِبل قوات عبد الله وربما من قِبل القوّات اليهودية. وإذا ما قدّر لجيش المتطوعين أن يُهزم، فالخسارة سوف تتحمّلها جامعة الدول العربيَّة عامة والفلسطينيون على وجه الخصوص. كذلك، كان يمكن إرسال جيش التحرير العربي للقتال في فلسطين قبل انسحاب البريطانيين رسمياً من فلسطين الخاضعة لانتدابهم، بتاريخ 15 أيار (مايو) 1948 بدون أن تضطر سورية رسمياً إِلىٰ الدخول في عمليات قتالية ضد بريطانيا. وإذا ما فشلت البلدان العربية في إرسال جيوشها للقتال في فلسطين، وهذا احتمال بدا قائماً إذ أن مصر وافقت على المشاركة قبل أربعة أيام فقط من بدء الحرب في 15 أيار (مايو) 1948، فقد

كان على الحكومة السورية مع ذلك أن تظل فاعلة. فهي ستحتفظ بسند لها في فلسطين وتتمكّن من القول للرأي العام السوري أنها فعلت أكثر مما فعلته البلدان العربية الأُخرى لمساعدة الفلسطينيين. والأمر الأهم، على أي حال، هو أن جيش التحرير العربي سيستخدم أداة للقضاء على مشروع عبد الله، أي مشروع سورية الكبرى، في المهد، والحيلولة دون توسيع دولته في نصف مساحة فلسطين.

إن تطور أهداف الرئيس القوتلي العسكرية في فلسطين مسجل في المفكرة اليومية التي كان يكتبها طه الهاشمي. وقد كان الهاشمي قومياً عربياً عراقياً وصديقاً مقرّباً من القوتلي منذ زمن طويل وقد عيّن مفتشاً عاما لجيش التحرير العربي ومسؤولاً عن تجنيد وتدريب الجنود في مقر قيادته في قطنا. وكان مكتبه في وزارة الدفاع السورية فكان يلتقي يومياً بالقادة السياسيين والعسكريين السوريين. لقد سجل الهاشمي في مفكرته اليومية في تشرين الأَوَّل (أكتوبر) 1947، أي بعيد أن أوصت لجنة الأُمم المتّحدة الخاصة بقضية فلسطين، بتقسيم فلسطين كحل للمشكلة، وبعد أن فشلت سورية في استمالة المملكة العربية السعوديَّة أو مصر إِلىٰ فكرة إقامة تحالف عسكري ضد الهاشميين فكان رأي القوتلي في ذلك كما دوّنه الهاشمي ما يلي:

«سيبدأ مشروع سورية الكبرى من الجزء العربي في فلسطين، ولذلك أصدرت أمري إِلىٰ الجيش السوري بالتحرك نحو الحدود السورية ـ الفلسطينيَّة، والقوة التي تمركزت هناك مؤلَّفة من 2500 رجل. وأرسل لبنان أيضاً 1000 رجل إِلىٰ حدوده. وحالما تدخل قوّات العراق والأردن فلسطين سندخل نحن أيضاً ونحتل الناصرة وشمال فلسطين»(54).

إن ما كانت ترمي إليه استراتيجيَّة القوتلي في فلسطين دائماً هو منع تقدّم عبد الله في المنطقة وليس إيقاف القوّات اليهودية.

---

(54) الهاشمي «مذكرات» ص155.

لم يشك الرئيس القوتلي أبداً في أنه سيحتاج إِلىٰ ما هو أكثر من الجيش السوري للدفاع عن حدوده. وقد اعترف في شهر أيلول (سبتمبر) 1947 بأن «المشكلة الحقيقية هي إصلاح الجيش السوري وحل مشكلة قيادته»[55]. وإخفاق القوتلي في إصلاح الجيش السوري أثَّر في قراراته طوال الحرب. وكان يأمل أن يبقي الجيش خارج القتال ريثما يتمكّن من تعزيزه. وبدلاً من تعزيز الجيش سيعزّز جيش التحرير العربي. وختم القوتلي كلامه بالقول: «لا بد لنا من أن نقصر جهودنا على الحركة الشعبية في فلسطين. وينبغي لنا أن نعزّزها وننظّم شؤونها بأسرع ما يمكن»[56]. لقد قدّم رئيس الوزراء جميل مردم تفسيراً أطول لعدم إمكان إرسال الجيش السوري إِلىٰ فلسطين وللحاجة إِلىٰ جيش من المتطوعين، فقال: «بما أن (الحكومات العربية لا يُعتمد عليها) فقد قرّرت أن من الضروري تقوية فلسطين بالأَسلحة والرجال وتنظيم شؤونها وتعيين قائد ليتولى الاهتمام بهذه الأمور. إن الحركة الشعبية في فلسطين مسؤولة عن إنقاذ الموقف بمساعدة الحكومات العربية. وذلك لأنني أشك في وحدة الجيوش العربية وقدرتها على القتال معاً. وإذا ما تعرّضت الجيوش العربية، وبالأخص الجيش السوري، إِلىٰ هجوم مفاجئ ساحق من قِبل الهاغانا اليهودية، فإن ذلك سيؤدي إِلىٰ الحطّ من سمعتها بحيث لن تستطيع الحكومات العربية إطلاقاً أن تشفى من أثر الضربة. وأفضل ما يمكن عمله هو ترك العمل للفلسطينيين وإمدادهم بالمساعدة مع الحكومات العربية. إن ضمان وجود قيادة فعّالة في فلسطين هو أمر بالغ الأهمية ولا بدّ من القيام بذلك بأسرع مايمكن. وإذا كان مصير الحركة الفشل، لا سمح الله، عندها سيكون الفاشل هو شعب فلسطين وليست الحكومات العربية وجيوشها. وما دام موقف الملوك والأمراء هو موقف الحيطة والتآمر، تكون هذه السياسة هي السياسة الوحيدة الصائبة»[57].

---

(55) المصدر السابق الفقرة المدونة بتاريخ 22 أيلول (سبتمبر) 1947 ص150.

(56) المصدر السابق الفقرة المدونة بتاريخ 23 تشرين الثاني (نوفمبر) 1947 ص171.

(57) المصدر السابق الفقرة المدونة بتاريخ 15 تشرين الثاني (نوفمبر) 1947 ص167.

منذ بداية الصراع كان قادة سورية يخطِّطون لمواجهة الهزيمة ويسعون لاحتواء الضرر الذي سيتعرّضون له من جراء موارد بلادهم الضئيلة واستعداداتهم القليلة. وقد كانت الغاية من جيش التحرير العربي استبعاد أسوأ عواقب الهزيمة وحماية سورية من عجز الحكومات العربية عن وضع خطة مشتركة للمعركة أَو تحديد الأهداف في فلسطين. وعلى وجه الخصوص، كان القوتلي يعمل كي يكون بالإِمكان استخدام جيش التحرير العربي لعرقلة مشروع سورية الكبرى.

يشرح فوزي القاوقجي القائد لعام لجيش التحرير العربي في فلسطين، في مذكراته، كيف سعى القوتلي إِلىٰ استخدام جيش التحرير العربي كدرع ضد طموحات عبد الله وكيف أن المنافسات العربية جعلت أي تعاون في فلسطين أمراً مستحيلاً. فكتب ما يلي: «لعل الملك عبد الله كان مصمِّماً على تحقيق مشروع سورية الكبرى عبر فلسطين. كان عليه إرسال جيشه إِلىٰ ميدان المعركة في فلسطين ماراً عبر شرق الأردن، تُرى كيف كان يمكن أن يتصرّف؟ هل يساعد الأردن في تحقيق المشروع؟ ومن حيث موقف عبد العزيز بن سعود.. فقد كان عليه أن يكون مستعداً للعمل عندما تتوضح النيّات الحقيقيَّة (للملك عبد الله).

«لقد سألني في أحد الأيام فخامة الرئيس القوتلي ما هي الخطوة التي يجب اتخاذها والتي يمكن اتخاذها لمنع حدوث هذا الخطر الجسيم؟ أجبته أن جيش التحرير في فلسطين يمكنه أن يمنع حدوث ذلك لأنه سيحول دون وقوع حرب بين الدول العربية. وهو سيمكنكم من اتخاذ الاحتياطات التي تعتبرونها ضرورية دون أن تؤثِّر تلك الاحتياطات في مجرى الحرب بيننا وبين اليهود في فلسطين. وهكذا أصدر الرئيس القوتلي أمره بإرسال فرقة من الجيش السوري إِلىٰ الحدود الفلسطينيَّة ـ الأردنية، حيث بقيت مجمّدة في مكانها»[58].

(58) فوزي القاوقجي «فلسطين في ذكرات فوزي القاوقجي» المجلد الثاني تحرير خيرية =

لحظة الحقيقة أمام القوتلي

جرى تجميع جيش التحرير العربي بسرعة. والمتطوعون جاؤوا من خلفيات شديدة التنوُّع. ومع نهاية كانون الثاني (يناير) 1948، كان نحو 3,800 مجاهد يتلقّون تدريباً بدائياً في قاعدة الجيش في قطنا، وكان كثيرون قد تسلّلوا عبر الحدود إِلىٰ فلسطين. وكان عديدهم يشتمل على 1,100 عراقي، و700 فلسطيني، و100 مصري، و40 أردنياً، و40 يوغسلافياً، و1,800 سوري، وكثيرون كانوا من الأقليات العرقية والدينية في المنطقة(59)، وجميعهم جاؤوا بدون أَسلحة وبدون تدريب. ومعظم ضبّاطهم كانوا سوريين، سُحبوا من بين الذين تطوّعوا من الجيش. قالت جامعة الدول العربيّة إن جيش التحرير يجب أن يضم 16,000 رجل، لكن هذا العدد لم يتحقَّق إطلاقاً. ومن المشكوك فيه أن يكون عدد الجنود الأكفياء الذين قاتلوا بقيادة القاوقجي قد تجاوز 5,000 رجل، ولعل العدد كان أقل كثيراً. ادعى الجنرال صفوت، في منتصف نيسان (أبريل) أنه لا وجود لأكثر من 3,000 متطوع تحت قيادته في فلسطين(60). وقد بدأت الوحدات الأولى من المتطوعين تعبر الحدود السورية إِلىٰ فلسطين في أواخر كانون الثاني (يناير) 1948.

مع حلول شهر آذار (مارس)، كان القاوقجي قد أقام مقر قيادته في جبع بالقرب من نابلس وسعى لتمديد سيطرته إِلىٰ شمال فلسطين والسامرة. ولم تكن مصادفة أن الأكثرية الكبرى من وحدات جيش التحرير العربي تركّزت في

= قاسمية (بيروت 1975) ص 135 ـ 36. أشكر مايكل دوران لأنه لفت انتباهي إِلىٰ هذا المقطع.

(59) أرسلان «مذكرات 1948» ص111. يدعي أرسلان أن الأكثرية كانت من الدروز والشركس والإسماعيليين. أكثر من ألف آشوري بقيادة ملكهم تطوعوا أولاً وجاؤوا عبر منطقة الجزيرة.

(60) حاييم ليفنبرغ «الاستعدادات العسكرية من جانب عرب فلسطين 1945 ـ 48» (لندن 1993) ص232.

شمال فلسطين وفي الأقضية العربية التي كان يعتزم عبد الله أن يضمّها إِلىٰ مملكته[61]. ويقول دوران مفسراً ذلك «مع وجود مقر قيادته في شمال الضفة الغربية، كان موقف القاوقجي هو موقف المراقب الحارس، ضد ضم المنطقة إِلىٰ المملكة الأردنية»[62]. لم يتم إرسال سوى بضع مئات من جنود جيش التحرير العربي إِلىٰ مناطق مثل حيفا، أَو القدس، أَو يافا ـ تل أبيب، هذه المناطق التي شهدت أعنف قتال، وفيها أكبر كثافة من السكّان الفلسطينيين الذين كانوا في أمسّ الحاجة إِلىٰ المساعدة. وكان معنى ذلك أنّه وقع على عاتق الميليشيّات المحلية التي لم تحصل إلاّ على القليل من التدريب، والحد الأدنى من القيادة، أَو أنّها كادت تكون عاجزة عن تنسيق مقاومتها، معظم الأعمال القتالية وهي ما لبثت أن تعرّضت للهزيمة على يد القوّات الصهيونية.

كان شهر نيسان (أبريل) الشهر الحاسم في القتال. فقد كانت البداية في هذا الشهر بعملية ناخشون، التي طهّرت الهاغانا بواسطتها القرى الفلسطينيَّة على جانبي طريق يافا ـ القدس لكي تضمن وصول القوّات اليهودية إِلىٰ القدس، وكانت النهاية في هذا الشهر بسقوط حيفا في 22 نيسان (أبريل)، وبدء انهيار الوجود السكاني العربي في فلسطين. وقد رفض القوتلي إصدار الأوامر إِلىٰ جيش التحرير العربي بمساعدة المدن البائسة، والتي كانت تحت إشراف قادة غير خاضعين لسلطته. ورفض أيضاً أن يضحي بأَسلحة وذخائر ومدفعية سورية كانت هي كل ما تطلبه الميليشيات في فلسطين.

في الخامس من نيسان (أبريل) 1948 جاء عبد القادر الحسيني، قائد قوّات «الجهاد المقدَّس» غير النظاميَّة، المدافعة عن منطقة القدس، إِلىٰ دمشق طالباً المساعدة. استجدى القوتلي وأعضاء اللجنة العسكرية المسؤولين عن جيش التحرير العربي في طلب الأَسلحة، والمدافع، والدعم.. قُوبل طلبه

(61) المصدر السابق ص200.

(62) دوران «العروبة» ص120.

المساعدة بالرفض لأن عبد القادر تابع لقيادة الحاج أمين الحسيني، مفتي القدس، ورئيس الهيئة العربية العليا التي رفضت الاعتراف بسلطة جامعة الدول العربيَّة وسلطة القوتلي على فلسطين. وبينما كان عبد القادر ينسحب هائجاً من الاجتماع ليعود إِلىٰ القتال في القسطل، حيث كان مقدّراً له أن يقتل في غضون أيام، صاح غاضباً في وجه القوتلي وأعضاء اللجنة «كلكم خونة، وسيسجِّل التاريخ أنكم أضعتم فلسطين»[63]. بالنسبة للقوتلي، كان الاحتفاظ بالسيطرة على شمال فلسطين وحماية حدود سورية أهم من التوجّه للدفاع عن القدس. لقد رأى ضابط فلسطيني مرموق، قاتل في قوّات المفتي «أن مهمة جيش التحرير العربي كانت تحطيم المقاومة المنظَّمة التي يقوم بها (الجهاد المقدَّس ـ قوَّات المفتي) الذي كان يضم في صفوفه شباب فلسطين»[64].

طوال شهر نيسان (أبريل) انهالت على القوتلي والقيادة السورية توسلات المساعدة من المقاتلين المحاصَرين في فلسطين الذين نفدت ذخائرهم وكانت تكتسحهم القوَّات الصهيونية. بالنسبة للقوتلي، جاءت لحظة الحقيقة في نهاية شهر نيسان (أبريل)، عندما طلب ضبّاط سوريون، وبالأخص أديب الشيشكلي، الذين كانوا يقودون قوَّات جيش التحرير العربي في منطقة صفد، مساعدات وإمدادات فورية من الجيش السوري بالذات.. كان على القوتلي أن يقرِّر هل يخفض قوة الجيش السوري أم لا، وهذا هو الأسوأ، يزج الجيش في القتال لإنقاذ وضع جيش التحرير العربي في فلسطين. وقد أبرق طالباً المساعدة من لبنان، ومصر، والمملكة العربية السعوديَّة، ولكن هذه الدول لم يكن عندها ما

---

(63) بهجت أبو غريبة «في خدمة النضال العربي الفلسطيني: مذكرات المناضل بهجت أبو غريبة 1916 ـ 1949» (بيروت 1993)، هذه المذكرات كما استشهد بها في كتاب «وثائق مختارة عن حرب فلسطين سنة 1948» كما شرحها وليد الخالدي في مجلة دراسات فلسطينية 27/ 3 (1998) ص75.

(64) محمد فايز القصري «حرب فلسطين 1948» المجلد الثاني (دمشق 1962) ص258.

تستغني عنه. وتوجه مبعوث سوري إِلىٰ الأردن فعاد من عمان بخبر يقول إن غلوب باشا يصر على أن ترسل سورية جيشها إِلىٰ فلسطين لمساعدة جيش التحرير العربي وأن تقدم الذخائر والمدفعية. الملك عبد الله من جانبه، أجاب بالألغاز قائلاً: «ما هو مقدر سيحدث» و«لكل شيء أوانه» وهلم جرا[65]. في وقت لاحق من اليوم ذاته، عاد الجنرال إسماعيل صفوت، رئيس اللجنة العسكرية المشرفة على جيش التحرير العربي من عمان، بخبر مفاده أن عبد الله يريد تسميته قائداً أعلى لكل القوّات العربية. يقول طه الهاشمي أن الرئيس القوتلي استشاط غضباً عند هذا الحد بسبب الضغط الشديد الناجم عن طلبات جيش التحرير العربي، والملك عبد الله، وبسبب الوضع الداخلي المتهاوي، وقد كتب الهاشمي ما يلي:

«فحوى ما قاله هو أن الملك عبد الله يريد أن يلعب ألاعيب وأن الإنكليز يحضّونه على ذلك لكي يستغلوا الوضع من أجل فرض معاهدة على سورية. إن استقلالنا شوكة في جنبهم، وهم يريدون أن يكون جيشنا أول من يدخل المعركة من أجل تدميره. وعندئذ، سيتظاهرون بالتحرّك لمساعدتنا ومقابل ذلك سينتزعون الثمن استعبادنا. إن البريطانيين يمهّدون الطريق أمام عبد الله لكي ينشر نفوذه على فلسطين وسورية. وهم لا يتحمّلون رؤية سورية مستقلّة، ولذلك فإنهم يريدوننا أن نرسل جيشنا لتدميره. لقد كلفنا الاستقلال الكثير الكثير. لن أضحّي أبداً بجيشنا، الوحيد الذي يحمينا من نفوذ عبد الله، إلخ. هذا هو الفخ الذي أريد أن أتجنّب الوقوع فيه مهما كلّف الأمر. إن شرف بلدي غال جداً. لقد ضحّيت بكل ما أملك للحصول على الاستقلال. بذلنا جهداً كبيراً لمساعدة فلسطين. ولكني لا أريد أن أقامر بجيشي ما دام هو الشيء الوحيد الذي يحمينا من هذه الألاعيب والمؤامرات. إذا كان الملك عبد الله

(65) الهاشمي «مذكرات» الفقرة المدونة بتاريخ 25 نيسان (أبريل) 1948 ص215.

obeikandi.com

يريد إرسال جيشه فليرسله. سأرحب به. أما إذا كان يريد من سورية أن تحمل وحدها عبء المشكلة الفلسطينيَّة، فإن ذلك لن يحدث»[66].

كان هم الرئيس القوتلي الأول طوال فصلي الربيع والصيف من سنة 1948 هو تجنّب أي اشتباك جدي مع القوّات الصهيونية تفادياً لتدمير الدفاعات السورية وترك الطريق مفتوحة أمام الملك عبد الله لتنفيذ خطته واحتلال سورية.

سجل المفتش العام لجيش التحرير العربي، طه الهاشمي، أحد الأحاديث المبكرة حول خطة سورية العسكرية الكبرى، وهذا الحديث يوضح أن قادة سورية وجيش التحرير العربي خطّطوا لأهداف محدودة في فلسطين. فخلال الأيام الأولى من شهر كانون الأَول (ديسمبر) 1947، عندما كانت الوحدات الأولى من جيش التحرير العربي تستعد لدخول فلسطين، سأل الجنرال إسماعيل صفوت، رئيس اللجنة العسكرية لمنظمة التحرير الفلسطينيَّة، رئيس الوزراء السوري مردم (هو أيضاً رئيس لجنة فلسطين في جامعة الدول العربيَّة)، ما هي مهمة جيش التحرير العربي: «هل تتوقعون منه القضاء على الصهيونية في فلسطين أم مجرد الحفاظ على مواقع عربية لهدف سياسي ما؟». أجاب مردم إن كل ما ينبغي لجيش التحرير العربي أن يفعله هو الثبات في بعض المواقع الشمالية. غير أن الرئيس القوتلي الذي كان خلال الحرب عرضة لتقلّب مزاجه بصورة دراماتيكية ولنوبات من الكآبة، استشاط غضباً وناقض كلام رئيس وزرائه. «لقد قال إن الهدف هو تدمير الخطر الصهيوني تدميراً كلياً كما قالت الحكومات، وإلاّ، فإنها ستكون موضوع سخرية الشعب وسخطه». ويوضح الهاشمي أن ذلك كان أول ما سمعه أحد من القادة العسكريين والسياسيين التابعين للقوتلي عن «هذه الخطة الجديدة للأهداف السياسية». وقد جلس الحضور وكأن على رؤوسهم الطير. منتظرين أن يقوم أحد بكسر جدار الصمت

(66) المصدر السابق ص217.

القلق، ومنتظرين أن يستعيد رئيس الجمهورية تمالك نفسه(67).

لم تخطط سورية إطلاقاً لأن تفعل في فلسطين أكثر من الاستيلاء على بضع بلدات شمالية. ولم يكن السبب أن جامعة الدول العربيَّة لم تطلب أكثر من ذلك(68). بل إن سورية لم تكن تملك القوة العسكرية لأداء دور عسكري هام في فلسطين. ولم يكن قادتها يثقون بضبّاط جيشهم. ولم يصدقوا أن البلدان العربية الأخرى عازمة على القيام بقسطها من القتال، ولعل الأهم من ذلك أنّهم كانوا يخشون الخطط الأردنية للاستيلاء على سورية.

الجيش السوري في حرب فلسطين

قام الجيش السوري بدور محدود جداً في حرب فلسطين. لم يضع الرئيس القوتلي خطة لاحتلال فلسطين وكان يعرف تمام المعرفة محدودية جيشه. إن العدد القليل من الجنود الذين نشرهم على حدود فلسطين يكشف أهدافه المحدودة. في شهر أيار (مايو) 1948، قبيل إرسال سورية جنودها إِلىٰ فلسطين، قدّرت المخابرات البريطانية أنّه لم يكن في سورية أكثر من 4,500 رجل جاهزين للقتال في فلسطين(69). وكان تقدير غلوب باشا أن عدد الجنود السوريين في فلسطين لم يتجاوز 3,000 رجل، أما وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فكان تقديرها أن سورية لم تنشر في فلسطين سوى ألف رجل حتى أواخر حزيران (يونيو) وكان هناك 1,500 رجل آخرون قرب الحدود السورية

---

(67) الهاشمي «مذكرات» الفقرة المدونة بتاريخ 27 كانون الأَول (ديسمبر) 1947 ص183.

(68) الأدلة الوثائقية هنا تتناقض مع الاستنتاج الذي توصل إليه إيلان بابيه القائل إن سورية كانت مستعدة لإرسال قوة أكبر ولم يمنعها من ذلك إلاَّ تقصير اللجنة العسكرية لجامعة الدول العربيَّة في الطلب إِلىٰ سورية أن تسهم بعدد أكبر من القوَّات. «خلق الصراع العربي - الإسرائيلي 1947 ـ 1951 (لندن 1992) ص106.

(69) العلاقات الخارجية للولايات المتحدة، 1948 المجلد الخامس الجزء الثاني، تك Tuck (السفير في مصر) إِلىٰ وزير الخارجية الأمريكي (14 أيار ـ مايو 1948) ص991.

«فيكون المجموع 2,500 رجل مؤثِّر»[70]. لقد تابع القوتلي سياسة حذرة في فلسطين.

ذاقت سورية الثمار المرة الأولى للهزيمة خلال أول اقتحام في فلسطين بعد ستة أيام من بداية الأعمال الحربية رسمياً في 15 أيار (مايو). لقد صدت قواتها عند بلدة سمخ ومستعمرتي دغانيا 1 ودغانيا 2، في منطقة الحدود جنوبي بحيرة طبريا مباشرة. إن ثلاثمئة جندي سوري قتلوا أَو جُرحوا، معظمهم بنيران الرشاشات الإسرائيلية[71]. كان ردّ فعل هذه الهزيمة فورياً في الصحف السورية والبرلمان السوري. لم يتردّد أحد في توجيه إصبع الاتهام إِلىٰ الحكومة لتقصيرها في التسلّح أَو الإعداد العسكري الكافي. وكان رد الرئيس القوتلي هو عزل رئيس الأركان اللواء عطفة ووزير الدفاع أحمد الشراباتي. تولى رئيس الوزراء مردهم مهام وزير الدفاع وقام القوتلي بترفيع الزعيم حسني الزعيم، قائد الدرك، إِلىٰ منصب رئيس الأركان.

وبالرغم من خسارة سورية الأولية، تمكّنت قوّاتها من احتلال شريط ضيق من أرض فلسطين خلال أول شهرين من الحرب. عندما رسمت حدود فلسطين من قِبل البريطانيين في سنة 1923، لم يكن ما يشغل البال الدفاع عن فلسطين، بل مياه فلسطين. لقد جرى تخطيط الحدود بحيث تكون بحيرة طبريا بكاملها، بما في ذلك شريط عرضه عشرة أمتار من شاطئ البحيرة الشمالي الشرقي، داخل فلسطين. ومن بحيرة طبريا شمالاً إِلىٰ بحيرة الحولة رسمت الحدود ما بين 50 و400 متر شرقي نهر الأردن، محتفظة بذلك النهر كاملاً ضمن فلسطين. وحصلت فلسطين أيضاً على نتوء من الأرض يمتد شرقاً بين

---

(70) جون باغوت غلوب «جندي مع العرب» (لندن 1957) ص94. العلاقات الخارجية للولايات المتحدة 1948 المجلد الخامس، الجزء الثاني، «تقرير أعدته وكالة المخابرات المركزية» واشنطن (27 تموز ـ يوليو 1948) ص1244.

(71) أرسلان «مذكرات 1948» الفقرة المدونة بتاريخ 23 أيار (مايو) 1948 ص111.

الحدود السورية ـ الأردنية على امتداد نهر اليرموك، أكبر روافد الأردن، بدءاً من بلدة الحمة ـ حالياً (حامات ـ غادير). هذه المنطقة كلها الواقعة إِلىٰ الشرق من نهر الأردن وبحيرة طبريا كانت منطقة لا يمكن الدفاع عنها واستولت عليها القوّات السورية بسهولة. وتمكن الجيش السوري من عبور النهر جنوبي بحيرة الحولة مباشرة لاحتلال كيبوتس مشمار هاياردن والدفاع عنها ضد العديد من الهجمات اليهودية المعاكسة[72]. كما احتلت القوّات السورية موطئ قدم في الزاوية الشمالية الشرقية القصوى من فلسطين، شرقي مستعمرة دان اليهودية مباشرة. وبذلك احتلت سورية ثلاثة جيوب واضحة ضمن فلسطين/ إسرائيل في شمال، ووسط، وجنوب مناطق حدود سنة 1923. هذه الجيوب الثلاثة بمجموعها، مضافاً إليها ذلك الشريط الضيق الممتد بمحاذاة المحيط الشرقي لنهر الأردن وبحيرة طبريا، بلغ 66,5 كيلومتراً مربعاً من الأرض. وأصبحت هذه الأرض جزءاً من القطاع المنزوع السلاح بعد هدنة سنة 1949[73]. وفيما عدا عمليتيه الصغيرتين للاستيلاء على قرى عبر نهر الأردن، ظل الجيش السوري بدون نشاط إِلىٰ حد كبير خلال حرب 1948.

بقي جيش التحرير العربي في الجليل حتى شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 1948، عندما دفعته إِلىٰ لبنان القوّات اليهودية التي انتقلت من الجنوب. ثابرت الحكومة السورية على عدم مساعدة جيش التحرير العربي خلال صيف 1948، عملياً «حاكمة عليه بالموت» حسب قول عادل أرسلان[74]. بذل طه الهاشمي الكثير من طاقته في أواخر صيف وخلال خريف 1948 محاولاً عزل فوزي القاوقجي من منصبه كقائد لجيش التحرير العربي. ولم يعد القاوقجي وكثيرون من ضبّاطه يثقون بالقادة العرب بعد أن رفض هؤلاء إمدادهم بالسلاح أو نشر

---

(72) ماعوز «سورية وإسرائيل» ص19.

(73) فريدريك هوف «خط 4 حزيران ـ يونيو 1967» مجلة ميدل إيست إنسايت (عدد أيلول ـ سبتمبر 1999).

(74) أرسلان «مذكرات 1948» الفقرة المدونة بتاريخ 23 أيار (مايو) 1948 ص111.

جيوشهم لمساعدة جيش التحرير العربي. بدأ القاوقجي يعمل حسابه، ومع حلول شهر آب 1948 رفض إطاعة أوامر القادة السوريين أو طه الهاشمي. ويقول الهاشمي أن القاوقجي شرع يحيك المؤامرات مع ضباط سوريين ولبنانيين ينتمون إلىٰ حزب أنطون سعادة، الحزب السوري القومي الاجتماعي، وأحزاب أخرى، ومع ضبّاط موالين للهاشميين والملك عبد الله لإسقاط حكومة دمشق[75]. وكان جلياً أن القاوقجي خطط للإطاحة بالحكومة اللبنانية أولاً، ثم يستولي على سورية، وفي نهاية الأمر يوحدها مع الأردن والعراق. وحسب قول الهاشمي «كان القاوقجي يعتقد أنّه بهذه الطريقة ستؤدي حركته إلىٰ توحيد البلدان العربية وإقامة جمهورية. بعد ذلك يهاجم اليهود ويخرجهم من فلسطين»[76]. أصبح جيش التحرير العربي مصدر إزعاج شديد للرئيس القوتلي في نهاية الحرب. إضافة إلىٰ ذلك فإن تآمر القاوقجي أحيى مخاوف الرئيس القوتلي من مشروع سورية الكبرى ومن عدم ولاء ضبّاط جيشه.

الخلاصة

كان هدف الحكومة السورية الأعلى خلال حرب 1948 هو الحيلولة دون تنفيذ الملك عبد الله مخططه لإقامة سورية الكبرى. وكان اهتمام القوتلي بحماية بلده من احتمال غزوها من قِبل الأردن، أكبر من اهتمامه بمساعدة الفلسطينيين أو بمقاتلة الصهيونيين. ومن الأمور التي تساعد الباحث، من عدة جوانب، هو أن ينظر إلىٰ الصراع في فلسطين على أنه صراع بين العرب استغلته القوّات الإسرائيلية باقتدار للاستيلاء على فلسطين. ومع أن الجيوش العربية لم تتقاتل علناً، فإن أعمالها كانت مدمّرة بصورة متبادلة لأنها رفضت أن تتعاون ووقفت عمداً وقفة متفرج بينما كانت القوات الصهيونية تجهز على الميليشيات الفلسطينيّة والجيوش العربية الواحد بعد الآخر. ثم إن العداء المتبادل وانعدام

(75) الهاشمي «مذكرات» ص234. للمزيد من التثبت من أن القاوقجي كان يخطط لانقلاب راجع كتاب هاني الهندي «جيش الإنقاذ» (بيروت 1974) ص112.

(76) المصدر السابق الفقرة المدونة بتاريخ 21 تشرين الثاني (نوفمبر) 1948 ص246.

الثقة بين الكتلتين العربيتين ـ الكتلة الهاشمية وكتلة مصر، والسعودية، وسورية ـ دعك عن القوَّات الفلسطينيَّة بقيادة الحاج أمين الحسيني، كانا أكبر من الرغبة في منع استيلاء اليهود على فلسطين. وكانت كل حكومة عربية تسعى وراء مصالحها المحلية وبذلك عجزت هذه الحكومات عن صياغة خطة مشتركة للمعركة ضد الصهيونيين.

لقد كانت سياسة سورية العسكرية خلال حرب 1948 نتاج ضعف سورية سياسياً وعسكرياً. وبدافع خوف سورية من الاضطراب الداخلي إذا لم تفعل شيئاً، وخوفها من هزيمة عسكرية واحتمال غزوها إذا قاتلت قتالاً جدياً، اكتفت بالاستيلاء على بضع بلدات صغيرة على الجانب الفلسطيني من الحدود لتأسيس موقف تفاوضي ولتقف في وجه تنفيذ خطة الملك عبد الله الفخمة لإقامة سورية الكبرى. ولما كان الرئيس القوتلي يعتقد أن تقسيم فلسطين سلمياً بين إسرائيل والأردن سيعزِّز قوة الملك عبد الله ويساعده في خطته لإقامة سورية الكبرى، فقد تبع سياسة الحرب ورفض أية خطة للسلام أو أي حال يعود بالنفع على الأردن. وهذا يفسِّر السبب في أن سورية كانت أول الداخلين إِلىٰ الحرب وآخر الخارجين منها. لقد كان شكري القوتلي يؤمن أنه يجب على سورية والدول العربية الأخرى، من أجل وقف تكبير حجم الأردن، أن تأخذ بيدها زمام السيطرة على الوضع في فلسطين بواسطة قيادة حركة المقاومة الفلسطينيَّة والمناداة بدخول الجيوش العربية إِلىٰ ساحة القتال في فلسطين. وقد كتب فوزي القاوقجي أَن الرئيس القوتلي كان يخشى «تصميم الملك عبد الله على تحقيق مشروع سورية الكبرى بواسطة فلسطين. هذه الإمكانية أكثر من أي شيء آخر كانت تقض مضاجع الحكومة السورية.. وفقط بعد ذلك، وبعده بمسافة كبيرة جداً، تأتي قضية فلسطين ذاتها..»[77].

(77) القاوقجي «فلسطين» المجلد الثاني ص136.

obeikandl.com

9 ما بعد: عواقب 1948(*)

إدوارد سعيد Edward W. Said

يحسن بي أن أبدأ بما خبرته شخصياً في سنة 1948، وبما يعنيه لكثيرين من الأشخاص من حولي. لي حديث مستفيض إلىٰ حد ما في هذا الموضوع في مذكراتي «خارج المكان»[1]. لقد نجت أسرتي المباشرة من أسوأ صروف الكارثة: كان لنا منزل، وكان يملك والدي عملاً تجارياً في القاهرة، ومع أننا كنا في فلسطين خلال معظم سنة 1947، فعندما رحلنا في كانون الأول (ديسمبر) من تلك السنة، لم يكتب علينا اجتياز المعاناة الجماعية التي كانت لها طبيعة جائحة والتي اقتلعت الناس (عندما طردت القوّات الصهيونية بتدبير متعمد 780,000 فلسطيني، حرفياً ثلثي سكان البلد). في ذلك الحين كنت في الثانية عشرة من عمري، ولذلك لم يتوفّر لي سوى إدراك ضعيف إلىٰ حد ما، وبالتأكيد ناقص الوعي، لما كان يحدث. لم يتوفر لدي سوى هذا الإدراك الضيق. ولكنني أتذكّر بوضوح خاص بعض الأشياء. أحد هذه الأشياء أن كل فرد من أسرتي، من جانبي الوالد والوالدة، صار لاجئاً خلال تلك المدة. لم يبق أحد منهم في فلسطيننا، أعني ذلك الجزء من الأرض (التي كانت تحت سيطرة الانتداب البريطاني) والذي لم يشمل الضفة الغربية التي ضمّها الأردن إليه. ولذلك، فإن أقربائي الذين كانوا يعيشون في يافا، وصفد، وحيفا والقدس الغربية، فجأةً فقدوا منازلهم، وفي أحيان كثيرة أصبحوا معدمين، وأصابتهم

(*) الحقوق محفوظة لأدوارد سعيد، 1999.

(1) إدوار سعيد «خارج المكان» «Out of place» (لندن، 1999).

ندوب دائمة. رأيت معظمهم بعد سقوط فلسطين فكانوا جميعاً مقهورين جداً بفعل ظروفهم، ووجوههم تنم عن القلق، واعتلال الصحة والقنوط. أما أفراد أسرتي الأبعد قرابة فقد فقدوا كل ممتلكاتهم ومنازلهم، وشأنهم شأن الكثيرين من الفلسطينيين في ذلك الحين تحمّلوا العذاب ليس بقدر ما هو عذاب سياسي بل وكأنه مأساة من مآسي الطبيعة. هذا الأمر حفر نفسه في ذاكرتي مخلفاً نتائج لا تزول، وعلى الأرجح لأن الوجوه التي كنت ذات يوم أتذكرها هانئة وخالية من الهموم، صارت ترتسم عليها الآن شجون النفي والتشرّد. عائلات كثيرة وأفراد تعطلت حياتهم ونضبت الروح فيهم ودِّمّرت سكينتهم نهائياً في سياق ما بدا أنه اقتلاع متدرج ولكن لا نهاية له: هذا كان ولا يزال بالنسبة لي أمراً له أشد التأثير. أحد أعمامي انتقل من فلسطين إِلىٰ الإسكندرية، فالقاهرة، فبغداد، فبيروت. وبلغ الآن الثمانينيات من عمره ويعيش في مدينة سياتل حزيناً، صامتاً مكتئباً، ولم يتعاف بالكامل لا هو ولا أحد من أفراد عائلته الأقربين. إن ما عرضته إنما هو أنموذج للقصة الكبرى، قصة الضياع والتشرد المستمرة حتى يومنا هذا.

الشيء الثاني الذي أستذكره هو أن فلسطين كانت بالنسبة إِلىٰ الشخص الوحيد من عائلتي الذي أفلح إِلىٰ حد ما في المحافظة على تماسكه في أعقاب النكبة، وأقصد عمتي، وهي أرملة في منتصف العمر لها مورد مالي على نحو ما، فلسطين كانت بالنسبة لها تعني خدمة اللاجئين البائسين، الذين أصبح عدة آلاف منهم معدمين، عاطلين عن العمل، يعانون من الفقر المدقع، لا يعرفون في أي اتجاه يسيرون في مصر. لقد نذرت حياتها لهم في مواجهة إثم الحكومة ولا مبالاتها التي تتصف بالسادية. وقد علمت منها أنه في حين كان كل شخص مستعداً لتقديم خدمة بالكلام فقط، كان عدد قليل جداً من الأشخاص مستعداً لعمل أي شيء حقيقي. ولذلك فإنها، كونها فلسطينية، أخذت على عاتقها أن يكون واجبها على مدى العمر أن تمضي في سبيل مساعدة اللاجئين ـ تأمين المدارس لأولادهم، والتودد إِلىٰ الأطباء والصيادلة لتوفير المعالجة والدواء

لهم، إيجاد عمل للرجال، وفوق كل ذلك، أن تكون بالنسبة لهم حضوراً طيعاً عطوفاً وأهم من ذلك خالياً من الظهور الذاتي. وهي، بدون أية مساعدة إدارية أَو مالية من أي نوع، ظلت في نظري، منذ مطلع يفاعتي، شخصية مثالية وإنساناً أقارن به جهودي المتواضعة جداً، فكانت ويا للأسف، تبدو جهودي دون المستوى المطلوب. كان مطلوباً بالنسبة لنا خلال عمري أن تكون المهمة، بالمعنى الحرفي، دائمة ولا نهاية لها، ولأنها مشتقة من مأساة بشرية بهذا العمق، وهذه الاستثنائية من حيث إشباع الحياة الرسمية وغير الرسمية للناس الذين يعيشونها، وإِلىٰ أصغر التفاصيل، فقد كانت وستظل بحاجة إِلىٰ أن نستذكرها، ونقدم شهادتنا عنها، وإصلاحها. إن الشعور المشترك والواسع بالظلم، بالنسبة لنا نحن الفلسطينيين، يظل يثقل على حياتنا بوطأة لا تتناقص. وإنني أرى أنّه إذا كان ثمة شيء واحد، جنوح واحد معيّن ارتكبته المجموعة الحالية من الزعماء الفلسطينيين، فهذا الشيء هو القدرة الموهوبة من العلاء، على النسيان، وذلك عندما سُئل أحدهم مؤخراً عن شعوره بوصول أرييل شارون إِلىٰ منصب وزير الخارجية في إسرائيل، علماً أنّه كان مسؤولاً عن سفك دماء فلسطينيَّة كثيرة، فكان جواب هذا الزعيم الذي تفوّه به مبتهجاً، إننا مستعدون لنسيان التاريخ ـ وهذه عاطفة لا يمكنني أن أشارك فيها وأُسارع إِلىٰ القول إنني أيضاً لا أستطيع بسهولة الصفح عنها.

ولا بد للمرء أن يستذكر على سبيل المقارنة قول موشي دايان في سنة 1969:

«جئنا إِلىٰ هذا البلد الذي كان مأهولاً بالعرب، وها نحن نقيم هنا دولة عبرية، أي دولة يهودية. وفي مناطق ذات وزن من البلد (مجموع المساحة كان نحو 6 بالمئة EWS) اشترينا الأراضي من العرب. أُنشئت قرى يهودية مكان القرى العربية، حتى أنني لا أعرف أسماء تلك القرى العربية، ولا أوجّه اللوم إليكم، لأن كتب الجغرافيا هذه لم يعد لها وجود، وليست الكتب فقط التي لم تعد موجودة، بل القرى العربية أيضاً. قامت نهلال (قرية دايان) في مكان

محلول، وقامت غفعات في مكان جبته، و(كيبوتس) ساريد في مكان حنيفس، وكفار يهوشواع في مكان تل شامان. لا يوجد في هذا البلد مكان تم تشييده ولم يكن فيه سابقاً سكّان عرب[2].

إن ما يذهلني أيضاً من جراء ردود الفعل الفلسطينيَّة المبكرة هذه، هو أنّها كانت إِلىٰ حد كبير ردود فعل غير سياسية. فعلى مدى عشرين عاماً بعد سنة 1948 كان الفلسطينيون غارقين في مشاكل الحياة اليومية دون أن يبقى إِلاَّ القليل من الوقت للتنظيم، والتحليل، والتخطيط، ولو أن بعض المحاولات جرت للتسلل إِلىٰ إسرائيل، ومحاولة بعض العمل العسكري، وللكتابة وتهييج المشاعر. وباستثناء ذلك النوع من العمل الذي أنتجه معهد الأهرام للدراسات الاستراتيجيَّة برئاسة محمَّد حسنين هيكل، كانت إسرائيل بالنسبة لمعظم العرب وحتى للفلسطينيين، نوعاً من اللفظة الرمزية (شيفرة)، لغتها مجهولة لنا، ومجتمعها لم نسكتشفه، وشعبها وتاريخ حركتهم مقتصرين إِلىٰ حد كبير على الشعارات، وعلى عبارات مبتذلة وإنكار الوجود. لقد رأينا وخبرنا سلوكها نحونا ولكننا احتجنا إِلىٰ وقت طويل لفهم ما رأينا وما خبرنا.

كان التوجّه العام في سائر أنحاء العالم العربي إِلىٰ التفكير بحلول عسكرية لذلك البلد الذي قلما كنا نتخيله، فكانت النتيجة عسكرة واسعة استحوذت على كل مجتمع في العالم العربي بدون استثناء تقريباً: فالانقلابات تتابعت بدون انقطاع إِلىٰ حد ما، والأسوأ من ذلك، أنه مع كل توسّع في الفكرة العسكرية كانت النتيجة نقصاً مقابلاً ومعادلاً في الديموقراطية الاجتماعية، والسياسية والاقتصادية. وإذا استعدنا الآن ما حدث، نجد أن الصعود نحو هيمنة القومية العربية أفسح المجال للتقليل جداً من المؤسَّسات المدنية الديموقراطية، والسبب الرئيسي هو أن لغة تلك القومية ومفاهيمها أولت الديموقراطية القليل

(2) هآرتس (جريدة يومية تصدر في تل أبيب، عدد 4 نيسان ـ أبريل 1969).

من الاهتمام في تطور تلك المجتمعات. وحتى الآن، أدَّى وجود خطر مفترض يتهدد العالم العربي إِلىٰ نشوء تأجيل دائم لأشياء كالصحافة الحرّة، أَو الجامعات غير المسيسة، أَو حريات الأبحاث واستكشاف مجالات جديدة للمعرفة. ولم يحدث استثمار كثيف في مجال نوعية التعليم، بالرغم من المحاولات التي أحرزت نجاحاً كبيراً من جانب حكومة عبد الناصر في مصر وحكومات عربية أخرى لخفض مستوى الأمية. وكان الرأي أنّه بوجود حالة طوارئ دائمة سبّبتها إسرائيل، فإن أموراً من هذا القبيل التي لا يمكن إنجازها إلاَّ نتيجة تخطيط طويل الأجل ونتيجة تفكير، تعتبر أنواعاً من البذخ من الخطأ الاتفاق عليها. بدلاً من ذلك احتل شراء الأَسلحة على نطاق ضخم مكان التنمية البشرية الأصيلة فكانت النتائج السلبية التي ما زلنا نعيشها حتى يومنا هذا. إن ثلاثين بالمئة من الأَسلحة في العالم ابتاعتها البلدان العربية في سنتي 1998 ـ 99. وجنباً إِلىٰ جنب مع العسكرة كان اضطهاد السكّان بالجملة، وفي الدرجة الأولى ولكن ليس حصراً، السكّان اليهود، الذين بدا فجأة أن وجودهم بين ظهرانينا على مدى أجيال من الزمن يشكِّل خطراً علينا. أنا أعلم أنّه كان ثمة دور صهيوني نشط في التحريض على اضطراب العلاقة بين يهود العراق، ومصر والبلدان الأخرى من جهة، وحكومات تلك البلدان العربية التي نادراً أن كانت ديموقراطية، من جهة أخرى، ولكن يبدو لي أنّه لا جدال في أنه كانت هناك حماسة للشعور بالخوف والكره تجاه الغير، الأمر الذي أدَّى رسمياً إِلىٰ قرار يقول إن هؤلاء وغيرهم من السكان «الغرباء» المحددة أوصافهم يجب اقتلاعهم بالقوة من وسطنا. ولم يقف الأمر عند هذا الحد. فباسم الأمن العسكري في بلدان مثل مصر، قامت حملة مسرفة لا توزن بميزان، مصدرها عقل دموي، ضد المنشقين، ومعظمهم من اليسار، ولكن بينهم أيضاً أشخاص مستقلو الفكر، انتهى بهم الأمر كنقّاد ورجال ونساء مهرة، في السجون بطريقة وحشية، عن طريق التعذيب حتى الموت. والإعدامات بدون محاكمة. وعندما يستعيد المرء النظر إِلىٰ هذه الأشياء في سياق سنة 1948 يجد أن المشهد الواسع للتبذير

والقسوة يبرز كنتيجة مباشرة للحرب ذاتها. ترافق ذلك بالمعاملة السيئة إِلىٰ حد الفضيحة للاجئين أنفسهم. ولا تزال هذه، مثلاً، حال ما بين 40,000 ـ 50,000 لاجئ فلسطيني مقيمين في مصر، فرض عليهم أن يمثلوا أمام مركز الشرطة المحلي كل شهر، وتقلّصت أمامهم الفرص المهنية، والتعليمية والاجتماعية، ولصق بهم الشعور العام بأنَّهم لا ينتمون إِلىٰ البلد بالرغم من قوميتهم العربية ولغتهم العربية. وفي لبنان لا يزال الوضع أشد بؤساً. إن نحو 400,000 لاجئ فلسطيني كان عليهم أن يتحمّلوا ليس فقط مجازر صبرا وشاتيلا، وتل الزعتر، وضبية وأماكن أخرى، بل كان عليهم البقاء في حالة حجر كريه طوال نحو جيلين من الزمن. وليس لهم بموجب القانون حق العمل في ما لا يقل عن ستين مجال عمل، وليسوا مشمولين بصورة كافية بالتأمين الطبي، ولا يستطيعون العودة إِلىٰ لبنان إذا سافروا منه، وهم أهداف للريبة والكراهية. جزئياً ـ وسأعود إِلىٰ ذلك لاحقاً ـ قد ورثوا عباءة الازدراء التي ألبسهم إياها وجود منظمة التحرير الفلسطينيَّة في لبنان (وغيابها منه غير المأسوف عليه منذ سنة 1982). وهكذا ظلوا في نظر الكثيرين من اللبنانيين العاديين أشبه بعدو البيت الذي يجب الحجر عليه و/أو معاقبته من حين إِلىٰ آخر. وثمة وضع مماثل في النوعية، وليس بالدرجة ذاتها، في سورية. أما الأردن، فمع أنه كان (وهذا فضل يحسب له) البلد الوحيد الذي اكتسب فيه الفلسطينيون الجنسية، فإن فيه خط جزاء قائماً بين الأكثرية المحرومة من هذا العدد الكبير من الفلسطينيين من جهة والمؤسَّسة الأردنية من جهة أخرى، وهذا عائد إِلىٰ أسباب لا تدعو الحاجة إِلىٰ ذكرها في هذا الفصل. بيد أني أود أن أضيف أنه فيما يتعلَّق بمعظم هذه الأوضاع حيث يوجد لاجئون فلسطينيون بمجموعات كبيرة ضمن بلد أَو آخر من البلدان العربية ـ وجميع هذه الأوضاع هي نتيجة مباشرة لسنة 1948 ـ لا يوجد حل بسيط، وبالأحرى حل كريم أَو عادل، في المستقبل المنظور. ويجدر بنا أن نسأل لماذا يكون المصير المفروض على أناس تقاطروا بصورة طبيعية على البلدان المجاورة عندما طُرِدوا من بلدهم، هو مصير الضيق

والعزل، مع أن البلدان التي لجؤوا إليه كان الجميع يعتقد أنها سترحب بهم وتعينهم. على أي حال حدث العكس: فلا ترحيب بهم (ما عدا في الأردن) ـ وهذه نتيجة أخرى تعسة من نتائج التشريد الأصلي في سنة 1948.

هذا ينقلني إِلىٰ نقطة ذات أهمية خاصة، أعني ظهور لغة جديدة وثقافة جديدة منذ سنة 1948 في كل من إسرائيل والبلدان العربية. في الجانب العربي كانت تباشير ذلك في كتب مميزة ككتاب قسطنطين زريق «معنى النكبة»(3) والفكرة هي أنّه بسبب 1948 نشأ وضع غير مسبوق إطلاقاً تطلب هو أيضاً حالة غير مسبوقة من اليقظة والانبعاث. والأمر الذي أرى أنّه أكثر إثارة للاهتمام من الخطب أَو الأحاديث السياسية الجديدة ـ مع كل ما تتضمنه من صيغ مقررة، ومحظورات، ومداورة في الكلام، وكنايات، وهبات من الكلام جوفاء ـ هو كامل قدرتها على منع تسرب الماء (وهذه عبارة منحوتة) مقارنة بالكلام المقابل لها. ولعل من الصواب القول إن هذا الانقطاع في التواصل مع الآخر يمكن أصله في عدم التوافق بين غلبة الصهيونيين وتشريد الفلسطينيين، ولكن التطورات الناشئة عن هذا التناقض الأساس أدّت إِلىٰ فصل بين الجانبين على المستوى الرسمي، ولم يكن قط هذا الفصل حقيقياً بالمطلق مع أنه على المستوى الشعبي كان لقى حماسة شديدة له. وهكذا فإننا نعلم الآن أن عبد الناصر، الذي لم تكن تعلو على خطبه من حيث عدم التسامح والتصميم أية خطب أخرى، كان على اتصال مع إسرائيل عبر وسطاء متعددين، مثلما كان السادات، وبطبيعة الحال مبارك أيضاً. وهذا يصدق أكثر في حكام الأردن، وبقدر أقل إِلىٰ حد ما (ولكنه صحيح) في سورية. وأنا لا أحاول أن أقدِّم هنا أحكاماً مبسّطة لأن تباينات من هذا القبيل بين الكلام البلاغي والواقع شائعة في كل الأعمال السياسية. ولكن ما أود أن أقوله هو أن نوعاً من التصلّب في الرأي (الأرثوذكسية) والنفاق نشأ داخل المعسكرين العربي والإسرائيلي فهيّجا في

(3) قسطنطين زريق «معنى النكبة» (بيروت ـ 1948).

obeikandl.com

الواقع واستفادا من أسوأ وجه من وجوه كل من المجتمعين. إن الميل نحو الأرثوذكسية، وترداد الأفكار المستوردة بدون مناقشتها، والخوف من التجديد، ونوع أو أكثر من الكلام بلسانين، إلخ، وجد تربة خصبة للغاية.

إن ما أقصده، في حالة العرب، هو أن العداء خطابياً وعسكرياً لإسرائيل أدّى إِلىٰ مزيد، لا إِلىٰ نقص، من جهلها، وبالتالي إِلىٰ الأداء السياسي ـ العسكري الكارثي في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين. إن الإعجاب بالجيش إِلىٰ ما يشبه العبادة والذي كان يعني ضمناً أنّه لا وجود إِلاَّ لحلول عسكرية للمشاكل السياسية قد كان سائداً إِلىٰ حدّ أنه طغى على بدهية أن العمل العسكري الناجح لا بد أن يكون مستمداً من قوة لها دافع مبدئي وقيادة شجاعة، قوة متفقة وموحدة سياسياً، وهذا لا يمكن أن يصدر إِلاَّ عن مجتمع مدني. هذه الأمنية لم يكن لها وجود قط في العالم العربي، وقلما مورست أو قال بها أحد. إضافة إِلىٰ ذلك توطدت الثقافة القومية فشجعت بدلاً من أن تخف عزلة العرب عن بقية العالم العصري. وما لبثت إسرائيل أن صار النظر إليها على أنها دولة غربية وليس فقط دولة يهودية، وهي بذلك كانت مرفوضة رفضاً تاماً حتى كمسعى فكري مناسب لأولئك الذين يهمهم أن يعرفوا شيئاً عن العدو.

من هذه المقدمة تدفق عدد من الأخطاء المريعة. من بين هذه الأخطاء الافتراض بأن إسرائيل ليست مجتمعاً حقيقياً بل هي شبه دولة زمنها محدود، ومواطنوها موجودون فيها إِلىٰ أن يصيبهم الذعر فيضطرّون لمغادرتها. كانت إسرائيل كائناً وهمياً لا سبيل لتحقيقه، وكياناً «مفترضاً» أو «مزعوماً» وليس دولة حقيقية. والدعاية في هذا الاتجاه كانت ضحلة، عديمة المعرفة، وغير مؤثِّرة. إن الصراع الخطابي والثقافي ـ وهو صراع حقيقي ـ نقل من ميدانه إِلىٰ المسرح العالمي، إذا صح التعبير، وفي هذا المسرح أيضاً إذا استثنينا منه العالم الثالث، كان مقضياً علينا. نحن لم نكن حاذقين في فن عرض قضيتنا ضد إسرائيل بأسلوب إنساني، فلم نضع رواية مناسبة، ولم نجمع إحصاءات ونستخدمها،

ولم يوجد عندنا ناطقون مدرَّبون قادرون على إتقان عملهم. لم نتعلّم إطلاقاً أن نتكلّم بلسان واحد بدلاً من الكلام بعدة لغات متناقضة. علينا أن نفكر بالأيام المبكرة جداً التي سبقت فضيحة سنة 1948 وأعقبتها، أي عندما أخذ أشخاص من أمثال موسى العلمي، وشارل عيساوي، ووليد خالدي، وألبرت حوراني، على عاتقهم إطلاق حملة إعلامية عن القضية الفلسطينيَّة موجّهة إِلىٰ العالم الغربي، الذي تستمد منه إسرائيل الدعم الرئيسي. ولنقارن الآن تلك الجهود المبكرة، التي سرعان ما بدّدتها الخلافات العربية والتحاسد بين العرب، مع الكلام الرسمي الصادر عن جامعة الدول العربيَّة أَو أي بلد عربي بمفرده أَو مجموعة من البلدان العربية. إن هذا الكلام الرسمي كان (وللأسف لا يزال) بدائياً، سيء التنظيم والبث، يتصف بضحالة الفكر، خلاصة القول أنه كان كلاماً أخرق إِلىٰ حدّ الإحراج، وخاصة منذ أن صار المحتوى الإِنساني ذاته، أي المأساة الفلسطينيَّة، ذا قدرة على الإقناع، وصارت الحجة الصهيونية والخطة الصهيونية ضد الفلسطينيين شنيعتين إِلىٰ هذا الحد. والمفارقة المؤثِّرة هي أن أسلوب الإعلام الإسرائيلي كان في معظم الوقت ناجحاً، يستند إِلىٰ أسلوب مهني، وكان في الغرب، إِلىٰ حد كبير، مستحوذاً على الساحة. وقد جرى تعزيز هذا الأسلوب في بعض أجزاء العالم كأفريقيا وآسيا، بتصدير الخبرة الزراعية، والتكنولوجية والأكاديمية، وهذا مجال لم يطرقه العرب أبداً. وكون ما قدّمه الإسرائيليون هو عبارة عن نسيج من أنصاف الحقائق الأيديولوجية، يقل أهمية عن كونه حلوى غايتها الترويج لقضية، لصورة، ولفكرة عن إسرائيل من شأنها أن توصد الباب في وجه العرب وبطُرق عديدة تلحق العار بهم.

إذا نظرنا الآن إِلىٰ الماضي، نجد أن النزاع الكلامي الناجم عن سنة 1948 وكان إحدى نتائجه، قد تضخم على نحو فاق كل ما هو مثيل له في أي مكان آخر من العالم. ففي جزء من الوقت استعار هذا النزاع بعض حدة وبروز الحرب الباردة الذي أطره على امتداد نحو ثلاثين عاماً. والغريب في ذلك أنّه،

على غرار أحداث 1948 ذاتها لم يكن هنالك إطلاقاً أي تمثيل فلسطيني حتى سنة 1967 وبروز منظمة التحرير الفلسطينيَّة لاحقاً. فحتى ذلك الحين كنا معروفين بكل بساطة بصفتنا اللاجئين العرب الذين هربوا لأن زعماءهم طلبوا منهم أن يهربوا. وحتى بعد الأبحاث التي قام بها أرسكين تشايلدرز ووليد خالدي والتي نازعت صحة تلك الادعاءات وأثبتت وجود الخطة دالت منذ ثمانية وثلاثين عاماً، ما كان أحد يصدقنا[4]. أسوأ من ذلك، أن الفلسطينيين الذين ظلّوا في إسرائيل بعد سنة 1948 اكتسبوا صفة يتفرّدون بها هي صفة عرب إسرائيل، يتحاشاهم العرب الآخرون، ويعاملهم يهود إسرائيل بالقسوة من قِبل الإدارة العسكرية، وبقوانين الطوارئ الشديدة حتى سنة 1966 ـ تلك القوانين التي كانت تطبق عليهم وتختص بهم باعتبارهم غير يهود. والغرابة في هذا النزاع الخطابي مقارنة على سبيل المثال، مع الحرب التي نشبت بين أجهزة الدعاية الأمريكية واليابانية خلال الحرب العالمية الثانية كما أرّخ لها جون دووير[5]، هي أن التضليل الإعلامي الإسرائيلي، على غرار الحركة الصهيونية ذاتها، لم تترك فسحة لخصم من أهل البلاد الأصليين، أي لأحد ما على الساحة ممن سُلب أرضه ومجتمعه وتاريخه. لقد كنا مغيبين إِلاّ أحياناً كان ينظر إلينا «كفدائيين» وإرهابيين أَو كجزء من الجموع العربية الغفيرة المزعجة التي تريد خنق الدولة اليهودية الفتية، على حد التعبير الذي كان متداولاً.

إحدى النواحي الأشد سوءاً في هذه الحالة هو أن كلمة «سلام» بحد ذاتها اكتسبت معنى شريراً وغير مريح لدى العرب، في حين أن الكتّاب الإسرائيليين

---

(4) أرسكين تشايلدرز «الخروج الآخر» مجلة سبكتيتو (12 أيار ـ مايو ـ 1961)، وليد خالدي «الخطة دالت: الخطة الأساسية للاستيلاء على فلسطين» منتدى الشرق الأَوسط (تشرين الثاني (نوفمبر)، 1961) أعيدت طباعتها بتوسع في مجلة دراسات فلسطينية العدد 18 (1988) ص 4 ـ 37.

(5) جون دواير «حرب لا رحمة فيها: السباق والقوة في حرب المحيط الهادي» «War Without Mercy: Race and power in the pacific War» (لندن ـ 1986).

كانوا يستخدمونها في كل فرصة، قائلين «إننا نريد السلام مع العرب، وحتماً كان صدى هذا الكلام يتردّد مبيناً أن إسرائيل صادقة في رغبتها في السَّلام، في حين أن العرب الشرسين، ناكري الجميل والحقودين المصرّين على العنف ـ لا يريدون السلام. والواقع هو أن الخلاف بين الإسرائيليين والفلسطينيين لم يكن إطلاقاً حول السلام وإنما حول إمكانية استعادة الممتلكات والهوية القومية ـ وهذه كلها طمستها الدولة اليهودية الجديدة. أكثر من ذلك، إنه بدا للفلسطينيين أن السلام مع إسرائيل هو شكل من الإلغاء الذي يحرمنا الوجود السياسي، وأنه يعني القبول الحتمي والذي لا رجعة فيه، لأحداث 1948، وفقدان مجتمعنا ووطننا. وهكذا، مع ازدياد الابتعاد عن إسرائيل وكل ما تمثّله، اكتسبت فكرة الفصل بين الشعبين بكاملها حياة خاصة بها، مع أنّها كانت تعني لكل من الشعبين أشياء مختلفة. فالإسرائيليون أرادوا الفصل ليعيشوا في دولة يهودية لا يخالطها آخرون، خالية من سكّانها غير اليهود سواء في الذاكرة أَو في الواقع. أما الفلسطينيون فقد أرادوا الفصل كأسلوب لاستعادة وجودهم الأصلي باعتبارهم العرب مالكي فلسطين. إن منطق الفصل فعل فعله منذ سنة 1948 باعتباره موضوعاً مركزياً ملحّاً وصل الآن إِلىٰ أوجه وإِلىٰ خاتمته المنطقية في اتفاقات أوسلو المنحرفة عن المسار القويم ولا أمل فيها وغير قابلة للتنفيذ. وفي ما ندر جداً من اللحظات حاول الفلسطينيون أَو الإسرائيليون التفكير بتاريخهما وثقافتهما ـ المرتبطين ارتباطاً لا فكاك له سواء إِلىٰ الأحسن أَو الأسوأ ـ بصورة مشتركة، بفهم وجهة النظر الأخرى أَو بالتعايش الودي، بدلاً من التفكير بهما بأحكام حصرية متبادلة. إن التشويه المحض لوجهات النظر في التاريخ أَو المستقبل الذي نشأ في هذه الأحوال يقطع الأنفاس ويتطلّب هنا أنموذجاً وتحليلاً.

لا أظن أن بإمكان أي إنسان أن يخالف صادقاً القول بأن الفلسطينيين هم الضحايا منذ سنة 1948، وأن الإسرائيليين هم المنتصرون. ومهما حاول المرء

تجميل هذه الصبغة القاتمة، فإن حقيقتها تظل متلألئة في العتمة رغم كل شيء. والحجة العامة التي تطرحها إسرائيل ومناصروها هي أن الفلسطينيين هم الذين جلبوا المأساة لأنفسهم: ما الذي جعلهم يرحلون؟ ولماذا أعلن العرب الحرب؟ ولماذا لم يوافقوا على مشروع التقسيم سنة 1947؟ وهلم جراً. ويجب أن يكون واضحاً أن ما من حجة من هذه الحجج تسوغ سلوك إسرائيل الرسمي لاحقاً تجاه نفسها وتجاه ضحاياها الفلسطينيين، إذ ساد خلال كل السنوات الماضية سلوكها المتسم بأشد القسوة، وموقفها الخالي من الإنسانية، والشدة التي تكاد تبلغ السادية في قمع الفلسطينيين. إن الشعور الذي لا يفتأ يعبّر عنه الإسرائيليون واليهود عامة، من أن إسرائيل تواجه مهلكة خطرة وأن اليهود سيكونون دائماً أهدافاً لمعاداة السامية، هذا الشعور الذي تعزّزه الاستعانة بموضوع المحرقة (الهولوكوست)، وقرون من معاداة المسيحيين للسامية، المنفى اليهودي ـ هو شعور له وقته وله من وجوه عديدة ما يسوغه. وقد قلت صراحة أن ثمة مسوغاً لليهود ـ حتى اليهود الأمريكيين الذين لا تداني معاناتهم بأي شكل المعاناة الممضة لأمثالهم الأوروبيين ـ أن يشعروا بعذابات المحرقة كأمر خاص بهم، امتداداً إِلىٰ الوقت الراهن، ولكني لا أفتأ أتساءل هل استخدام هذا الشعور من أجل إبقاء الفلسطينيين بشكل أَو بآخر في حالة إخضاع دائم، له ما يسوغه من منطلق هذه الأُسس؟ ثم هل ثمة مسوغ لعربدات الخطب الرسمية التي فيها شطط (إن لم نقل أكثر من ذلك) عن الأمن الإسرائيلي، آخذين في الاعتبار مصير الفلسطينيين البائس؟ وهل الأعداد الضخمة من الجنود، والإجراءات المفرطة التي تبلغ حد الهوس بشأن الإرهاب، والحصار الذي لا نهاية له، وإجراءات التحقيق والاستجواب، وإيجاد المبرّر القانوني للتعذيب على امتداد اثني عشر عاماً، والخيارات النووية، والبيولوجية، والكيميائية وإجراءات التمييز ضد فلسطينيي إسرائيل، والخوف والاحتقار، والروح العدائية ـ ويستطيع المرء أن يمضي بعيداً في سرد مثل هذه الإجراءات ـ أليست هذه الأشياء كلها نوعاً من التشويه الشديد في مفهوم الحياة ونمطها، وهي كلها يفترضها ويؤججها

الشعور الانفصالي، إن لم نقل شعور الكراهية تجاه الآخرين، الذي يعني أن إسرائيل يجب أن تكون، ويجب أن تبقى بأي ثمن، دولة يهودية معرّضة للخطر ومعزولة، ومكروهة؛ ألا يحصل لدى المرء انطباع بأن اللغة التي تتحدَّث بها إسرائيل وأسلوب مخاطبتها للآخرين ـ هناك استثناءات بطبيعة الحال ـ تمثِّل بشكل عام رفضاً للانخراط بتاريخ إقليمي مشترك إِلاَّ على أساس هذه الشروط الانفصالية المتطرفة؟.

في ما يلي يبحث أدورنو Adorno تشويهات اللغة في من هو تحت السيطرة ومن المسيطر:

«لغة المسيطر تتحوّل ضد السادة الذين يسيئون استخدامها من أجل تولي القيادة، بالسعي لقيادتهم مع رفض خدمة مصالحهم. من ناحية أخرى، لغة الذين تحت سلطة الآخرين، قد سحقتهم السيطرة وحدها، وزادت حرمانهم من العدالة الموعودة من قِبل الكلمة المستقلة ذاتياً وغير المشوهة الموجهة إِلىٰ جميع الذين يملكون من الحرية ما يكفي للبوح بها بدون ضغينة. لغة البروليتاريا يمليها الجوع. الفقراء يمضغون الكلمات لكي يملأوا بطونهم. إنهم يتوقعون من روح اللغة الموضوعية الغذاء الذين حرمهم منه المجتمع. أولئك المملوءة أفواههم بالكلام لا يجدون شيئاً آخر بين فكيهم. ولذلك يصبون انتقامهم على اللغة. ولأنه محظور عليهم أن يحبوها، فإنّهم يعقرون جسم اللغة، وبالتالي يردِّدون بقوة عاجزة التشويه المفروض عليهم»[6].

إن النوعية التي تفرض نفسها في هذا المقطع هي تصوير التشويه الذي يفرض على اللغة، مكرراً، منقولاً، متحولاً إِلىٰ الداخل، عاجزاً عن توفير القوت. وهكذا يبدو لي التفاعل منذ سنة 1948 بين الكلام الرسمي للصهيونية وللوطنية الفلسطينيَّة، فالصهيونية تسيطر ولكنها في مجرى السيطرة تحرّف اللغة

---

(6) تيودور إدورنو، «مينيما موراليا» «Minima Moralia» (نيويورك ولندن ـ 1989) ص102.

تحقيقاً لسلسلة لا نهاية لها من التحريف، وهي سلسلة لا تخدم مصالحها (إسرائيل حالياً أقل أمناً، وأقل قبولاً لدى العرب، وازداد كرهها وازدراؤها)، وقد استخدم العرب اللغة كواسطة تعويضية لبلوغ تحقيق سياسي للذات ميئوس منه. وعلى مدى سنوات بعد سنة 1948 كان الفلسطينيون في الأحاديث الإسرائيلية مغيبين، عبارة عن كيان مرغوب فيه ولا وجود له، وانهالت عليهم صور من التغييب ـ البدو الرحّل، الإرهابيون، الفلاّحون، العرب، المتعصّبون، وهلم جراً. أما الفلسطينيون فقد كان حديثهم الرسمي مليئاً بتأكيد الحضور، ولو أنّه في معظمه حضور ملغى منطقياً بحسب سياسة القوة وبالتالي هو حضور تؤكده لغة كلغة محمود درويش في قصيدته «سجّل أنا عربي»[7] ـ أَو في زخارف من ضمنها حرس شرف وموسيقى قرب خاصة برئيس دولة وأباحها لنفسه ياسر عرفات. ومع مرور الزمن كانت التشويهات هي التي تزداد، وليس مقدار الواقع في اللغة.

هذه نقطة تصعب محاولة التعبير عنها، ولذلك أعطيها صيغة أخرى، إن التاريخ الحديث للصراع من أجل حق تقرير المصير الفلسطيني يمكن اعتباره محاولة لتصحيح التشويهات في الحياة واللغة، هذه التشويهات التي كتبت على نحو ممض جداً نتيجة 1948. لم تتوقف قط المقاومة الفلسطينيَّة، ومع صحة القول أنه حدثت بعض حالات النجاح هنا أو هناك في النضال الفلسطيني ـ الانتفاضة والمنعشات التي وفّرتها منظمة التحرير الفلسطينيَّة قبل سنة 1991 هما حالتان من أشهر هذه الحالات ـ فإن التحرّك العام كان إما أبطأ كثيراً من تحرّك الصهيونية، أَو أنه كان متراجعاً. ومن حيث الصراع على الأرض النتيجة كانت خسارة كاملة، إذ إن إسرائيل ثبتت بالطرق الحربية كما بالوسائل السلمية حيازتها الفعلية لمزيد ومزيد من الأرض الفلسطينيَّة. وأنا هنا أتحدّث بطبيعة الحال عن السيادة، والقوة العسكرية والتوطن الفعلي. وإنني أبين الفارق بين

---

(7) محمود درويش «قصائد من فلسطين» (بدون تاريخ).

ذلك من جهة وما أسميه أعراض الرد الفلسطيني من جهة أخرى، من مثل كثرة المحاولات الخطابية لتأكيد وجود دولة فلسطينية، ومحاولات مساومة إسرائيل على شروط أمن إسرائيل (وليس أمن الفلسطينيين)، وعدم الترتيب، وانعدام المنهجية، والإهمال ـ أي عدم الإعداد للأمور، وغياب الخرائط، والملفّات، والحقائق، والأرقام لدى المفاوضين الفلسطينيين في عملية أوسلو ـ هذه الأمور التي طبعت بطابعها ما لا يمكن تسميته إلاّ الافتقار إلىٰ الجدية في التعامل مع واقع ظروف التشرّد كمقابل للخطابية. هذه الأشياء، كما قلت سابقاً، تضاعف التشوهات الناشئة من الوضع الأصلي للخسارة والتشرّد: وهي بدلاً من أن تقدّم تصحيحات، تقدّم تشوهات إضافية وتعيد توليد تشوهات آثارها الآخذة في الاتساع تشمل كامل السلسلة، من الحرب، إلىٰ ازدياد عدد اللاجئين، وإلىٰ المزيد من التخلي عن الممتلكات والاستيلاء عليها، ومزيد من الإحباط، ومزيد من الغضب، ومزيد من الإذلال، إلخ. من كل ذلك تنبثق قوة العبارة التي قالتها روزماري صايغ، وهي عبارة صحيحة إلىٰ حد مذهل، بل هي عبارة ترهق الأعصاب، إذ تقول: «أعداء زاد عددهم عن الحد»[8] ـ وحدة هذه العبارة تتمثّل في أن الفلسطينيين، بواسطة المزيد من التحوّل الجدلي، أصبحوا أعداء أنفسهم عن طريق العنف الخائب الذي ينزلونه بأنفسهم.

بالنسبة لإسرائيل ومناصريها ـ وخاصة مناصريها الغربيين الليبراليين ـ لا شيء من هذا يهم كثيراً، ولو أن عبارات المديح لإسرائيل و/أو الصمت المعمم بسبب الإحراج، استمرت حتى في حالة إطلاق إسرائيل العنان لنفسها بطُرق لا يسمح بها عادة لأي بلد آخر. إحدى النتائج الرئيسية لسنة 1948 هي نتيجة تستدعي السخرية: مع تزايد آثار ذلك التشرّد الكثير التوالد، تزايد أيضاً الميل إلىٰ غض الطرف عن مصادرها، وإلىٰ التركيز على الحلول البراغماتية ـ الواقعية، التكتيكية «للمشكلة» في الوقت الحاضر. إن عملية السلام الحالية لا

---

(8) روز ماري صانع «أعداء زائدون عن الحد» (لندن ـ 1994).

يمكن أن تخطر في البال بدون إهمال القادة الفلسطينيين رسمياً بفعل فقدان الذاكرة، وهذا ما يؤسفني، لما حل بهم في سنة 1948 وما بعده. ومع ذلك، ما كان لهم أن يكونوا في الوضع الذي هم فيه لولا المعاناة التي عاشوها بكامل وجودها ووقائعها وكثافتها، من حيث الضياع والتشرّد، هذه المعاناة التي كان سنة 1948 أصلها ورمزها الدائم. ولذلك هناك آلية حركية مرعبة في غرابتها تعود بموجبها إلىٰ البروز جماعياً أخطاؤنا وكوارثنا التي نعيشها مجدداً بدون قوة أو دروس ماضينا أو حتى تذكره. إننا دائماً عند نقطة البداية، نبحث عن حل الآن، حتى وإن ذلك «الآن» بذاته يحمل كل علامات تقليصنا تاريخياً ومعاناتنا إنسانياً.

أرى أن ثمة، في الحالتين الإسرائيلية والفلسطينيَّة، انقساماً جوهرياً بين الفرد والمجموع، وهو أمر لافت للنظر، سيما وأن المجموع، على حد قول أدورنو، هو الزائف. لقد بيّن زئيف شتيرنهل في تحليله التاريخي لروايات تأسيس إسرائيل، أن فكرة المشترك التي تغلّبت على كل حالة من الخاص كانت في صميم ما سماه اشتراكية إسرائيل القومية[9]. وهو يقول إن المشروع الصهيوني هو مشروع فتح واستعادة شيء ما يشير إليه بطريقة تكاد تكون صوفية على أنّه «الأرض». من الناحية البشرية، كانت النتيجة إخضاع الفرد إخضاعاً كاملاً للذات الجماعية، التي يفترض أن تكون الجسم اليهودي الجديد، أي أنه نوع من المجموع المشترك السامي الذي لا أهمية للأجزاء المكونة له مقارنة بذلك المجموع. إن العديد من مؤسسات الدولة، وخاصة الهستادروت ودائرة الأراضي، لها الكلمة الأعلى إزاء ما قد تشتم منه رائحة الفردية أَو السلطة الفردية لأن ما كان دائماً بالغ الأهمية هو مصلحة المجموع المفترضة ولذلك، ووفقاً لقول بن غوريون، المواطنة أهم من أي شيء آخر؛ وينتج عن ذلك، أن التقشف في نمط العيش، والتضحية الذاتية، والقِيَم الريادية كانت جوهر الدعوة

(9) زئيف شتيرنهل «الأساطير المؤسِّسة لإسرائيل» (برنستون، نيوجيرسي، 1998).

الإسرائيلية. لقد تتبع شتيرنهل بتفصيل لم يبلغه أحد ممن أعرفهم، أنواع التعقيدات والتناقضات التي انطوت عليها هذه الرؤية ـ كيف، مثلاً، زعماء الهستادروت والعسكريون يحصلون على رواتب أعلى من العمال الذين، حسب المصطلح الدارج، يفتحون الأرض اليباب، بالرغم من أن عقيدة المساواة (تسمى في الخارج «اشتراكية») هي السائدة. غير أن ذلك ينشأ بمجرد أن صارت إسرائيل دولة مستقلة. «إن العقيدة الريادية، بمبادئها المركزية ـ الاستيلاء على الأرض، إصلاح الفرد، تحقيق الذات ـ لم تكن عقيدة تغيير اجتماعي، ولم تكن عقيدة يمكن أن تؤسس دولة علمانية ليبرالية وأن تضع نهاية للحرب مع العرب»[10]. ولا بد من أن نضيف أنها لم تتمكن من تكوين مفهوم للمواطنية، لأن القصد منها كان مخاطبة دولة الشعب اليهودي وليس مواطنيها كأفراد. ولذلك لم يكن مشروع الصهيونية هو هذه الدولة الحديثة الجديدة كل الجدّة فحسب، بل كان، حسب تعبير تشيرنهل، إلغاء الشتات.

إنه لأمر بالغ الصعوبة أن نجد ضمن العقيدة أَو الممارسة العربية السائدة في فترة ما بعد 1948 ـ سواء أنظرنا إِلىٰ حوليات البعثية، أَو الناصرية، أَو القومية العربية عامة ـ أي شيء شبيه بالاهتمام المركز على فكرة المواطنية. الأمر على العكس تماماً، فإن كان هناك أي شيء فهو صورة تعكسها المرآة للتوحد الصهيوني سوى أن معظم القصر الإثني والديني في القومية اليهودية ليس موجوداً هناك. إن القومية العربية بشكلها الأساسي هي بصورة عامة قومية متضمنة للآخرين ومتعددة، ولو أنّها كالصهيونية فيها شبه نفحة خلاصية وشبه رؤيوية بشأن الأوصاف الواردة في أسفارها الرئيسية (الخاصة بالناصرية والبعثية) المتعلقة بالانبعاث، بالإِنسان العربي الجديد، نشوء وولادة نظام حكم جديد، إلخ. وقد لاحظت سابقاً، حتى عند التأكيد في الناصرية على الوحدة العربية. إن المرء يشعر بأن لب فردية الإنسان وإمكانيته مفقود، كما أنه في الممارسة لا

(10) المصدر السابق، ص 46.

يشكّل جزءاً من البرنامج الوطني في زمن الطوارئ. حالياً دولة الأمن العربية التي وصفها وصفاً كاملاً البحّاثة، وعلماء السياسة، وعلماء الاجتماع، والمفكرون، هي شيء بغيض يبعث على الأسى في مجملها، وهي قمعية، واحتكارية في مفاهيمها لسلطة الدولة، وتعمد إلىٰ القسر عندما يتعلّق الأمر بمسائل الرفاهية الجماعية، ولكن، مرة أخرى، صامتة إلىٰ حد مرعب عن كامل مسألة ما هو المواطن، وما هي المواطنة، فذلك ينطوي على ما هو أبدى من خدمة الوطن والاستعداد للتضحية في سبيل الصالح العام. وفي مسألة الأقليات القومية ثمة بعض تفاهات الفكر هنا وهناك، ولكنها غير موجودة في الممارسة، إذا أخذنا في الاعتبار الفسيفساء العجيبة من الهويات، والطوائف، والإثنيات في العالم العربي. إن معظم ما قرأته من الأعمال الأدبية لأساتذة وعلماء عن العالم العربي ـ وخيرة هذه الأعمال وأحدثها ناقد ومتقدم جداً ـ يتحدَّث عن التبعية، والبيروقراطية، والحكم الأبوي، والوجهاء، وهلم جرّاً، ولكنه لا يمضي إلاَّ القليل من الوقت على نحو يبعث على الأسى، للحديث عن «المواطنة» كأساس لمستنقع الركود وتراجع التنمية اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً، وهو ما يحدث حالياً. وبالتأكيد، المحاسبة غائبة كلياً عن الصورة النقدية.

ولست أنا الوحيد القائل إن أكثر نتائج 1948 إشراقاً هي نشوء أصوات جديدة ناقدة، هنا وهناك، في العالمين الإسرائيلي والعربي (بما في ذلك أهل الشتات)، وأصحاب هذه الأصوات لهم رؤية ناقدة وشمولية. وأعني بذلك تلك المدارس الفكرية على غرار «المؤرخين الجدد» الإسرائيليين، ونظرائهم العرب، وكذلك، ضمن العديد من الدراسات الأحدث حول المنطقة، فهناك اختصاصيون في الغرب، أعمالهم اجتهادية بصراحة وسياسية في توجهها. ولعله من الممكن الآن أن نتحدَّث عن دورة جديدة بدأت ووصلت ضمنها جدلية الانفصال والحركة الانفصالية إلىٰ نقطة إجهاد، وقد يكون بدأ نهج جديد تظهر ملامحه هنا وهناك ضمن المكونات الحزينة للأخذ بالتجمعات

التعاونية التي يشعر الآن بشكل ما كل عربي يعمل فكره وكل يهودي أنها مقر الملاذ الأخير. وأنه لصحيح القول بل هي الحقيقة أن نظام الدول في المنطقة قد فعل ما يستطيع فعله كنتيجة لسنة 1948، أي لتوفير ما ينبئ بأنه نوع من الفضاء السياسي المتجانس للناس المتماثلين، للسوريين، وللأردنيين، وللإسرائيليين، وللمصريين، إلخ.. كانت أمنية الفلسطينيين ولا تزال أن يكون لهم توطيد للكيان الذاتي مع الجغرافيا، شيء من وحدة الأمة، المشتتة حالياً، وعودة أرض الوطن. غير أن مشكلة الآخر باقية، بالنسبة للصهيونية، وبالنسبة للقومية الفلسطينية، وبالنسبة للقومية العربية و/أَو الإسلامية. ولطرح الأمر بعبارات بسيطة، هناك دائماً وجود مغاير لا يقبل الانتقاص يجب أن يؤخذ بالحسبان والذي أصبح، منذ 1948 وبسببه غير قابل للمعالجة، وغير مرغوب فيه.

إذن، كيف يكون النظر إِلىٰ المستقبل؟ كيف يجب أن نراه، كيف العمل في اتجاهه، إذا كانت كل الخطط إما خطط الفصل أَو الإبادة، أَو العودة إما إِلىٰ العهد القديم من الكتاب المقدَّس أَو إِلىٰ عصر الإِسلام الذهبي أَو إِلىٰ ما قبل فترة 1948، لا تنفع وغير قابلة للنجاح؟ إن ما أريد أن أقترحه هو محاولة انبثاق استراتيجيَّة سياسية وفكرية قائمة على أساس السلام العادل، وتعايش عادل قائم على أساس المساواة. هذه الاستراتيجيَّة أساسها هو الوعي التام لما كان يعني سنة 1948 بالنسبة للفلسطينيين وبالنسبة للإسرائيليين، والأمر الهام هو أن أي تخفيف من وطأة الماضي، وأي تخفيف من آثاره يستطيع أن يخدم أي نوع من المستقبل الكريم. أود أن أقترح هنا الحاجة إِلىٰ نوع جديد من التجمع، نوع يوفر نقداً للروايات الأيديولوجية، وشكلاً ينسجم مع المواطنية الحقيقية والعمل السياسي الديموقراطي الحقيقي.

(1) نحن بحاجة إِلىٰ أن نضع في البال تاريخين غير منفصلين أيديولوجياً، بل هما معاً يتفهمان وجهة نظر الآخر، فلا التاريخ الفلسطيني ولا

التاريخ الإسرائيلي في هذه المرحلة هو في حد ذاته أي بدون الآخر. عندما نفعل ذلك سنصل بالضرورة إلىٰ عدم التوفيق الأساسي بين الادعاء الصهيوني وانتزاع الأرض من الفلسطينيين. إن الظلم الذي حل بالفلسطينيين هو جوهري بالنسبة لهذين التاريخين، كما هو أيضاً أثر معاداة الغرب للسامية والهولوكوست.

(2) بناء ما سماه ريموند ويليامز هوية ناشئة مركبة تستند في أساسها إلىٰ ذلك التاريخ المشترك، من عدم التوفيق، والعداوات وما إلىٰ ذلك. إن ما سنحصل عليه عندئذ هو وعي متشابك وبالضرورة لم يجد حلاً لفلسطين/ إسرائيل بواسطة تاريخها، لا رغماً عنه.

(3) مطلب الحقوق ومؤسَّسات المواطنية المشتركة، وليس الحصرية الإثنية أَو الدينية، وذروة هذه المواطنية هي دولة أحادية وكذلك إعادة التفكير في قانون العودة وعودة الفلسطينيين في آن واحد. والمواطنية يجب ألا تقوم على أساس التضامنات العادلة المؤلفة التعايش والحل المتدرج للخطوط الإثنية.

(4) الدور الحاسم للتثقيف مع تركيز خاص على الآخر. إن هذا هو مشروع نموذجي طويل الأجل يجب أن يكون فيه دور مركزي للجماعات البحثية في الشتات/ المنفى. هنالك الآن ما لا يقل عن أنموذجين وربما أكثر للأبحاث المتخاصمة، ويعزى الفضل إلىٰ هذه السلسلة من المداخلات في أنها تقر بالحالة الانتقالية للأبحاث الخاصة بفلسطين/ إسرائيل، وتطورها الحذر والسريع، ذي الطبيعة المشرذمة وغير المتساوية.

الهدف المثالي، بطبيعة الحال، هو تحقيق توافق بالإجماع من قبل الأساتذة الباحثين والمفكرين النشطين، على انبثاق تدريجي لنموذج اصطناعي جديد يعيد توجيه الطاقة المتحاربة والانقسامية التي اضطررنا إلىٰ العمل بها،

نحو قنوات أكثر إنتاجية وأكثر تعاوناً. وفي اعتقادي أن هذا لا يمكن حدوثه بدون اتفاق أساسي، اتفاق مقتضب أَو تفاهم خطوطه العامة يجب أن تتضمن اعتبار تاريخ الآخر تاريخاً صحيحاً ولكنه ليس كاملاً بشكله الذي يعرض به عادة، وثانياً يجب أن يقر بأن هذين التاريخين لا يمكن إِلاَّ أن يستمرا، بالرغم من أن العداوة، في الانطلاق معاً، وليس متباعدي، ضمن إطار أوسع قائم على أساس المساواة بين الجميع، وهذا بطبيعة الحال هدف علماني، وليس دينياً، وفي اعتقادي أنّه بحاجة إِلىٰ أن يبدأ الحياة بسبب احتياجات علمانية كلياً، وليست دينية أَو استبعادية للآخرين. إن تصميم العلمانية يتطلب نبذ التعمية والغموض، ويتطلب الشجاعة، ويتطلب اتخاذ موقف لا رجعة عنه ناقد للذات، وللمجتمع، وللآخر. ولكنه يتطلب أيضاً كلاماً عن الخلاص والتنوير للجميع، وليس لمجموعة الناس التي ينتمي إليها الفرد.

ردي على الذين يواجهون كل ذلك بالتحدي ويعتبرونه طوباوياً وغير واقعي، هو رد بسيط: أروني ما هو خلاف ذلك الموجود حالياً. أظهروا لي خطة للفصل ليست قائمة على أساس ذاكرة منقوصة، وظلم مستمر، وصراع لا تخبو جذوته، وعلى فصل عنصري (أبارتيد)؟ لا وجود لخطة من هذا القبيل، ومن هنا تأتي قيمة ما حاولت أن أشرحه هنا!.

obeikandi.com

obeikandl.com

مسرد الكتب

- عبد المنعم، محمد فيصل «أسرار 1948» (القاهرة 1968).
- عبد الناصر، جمال «فلسفة الثورة» (القاهرة ـ بدون تاريخ).
- «فلسطين: من أقوال الرئيس جمال عبد الناصر» (القاهرة ـ بدون تاريخ).
- «مذكرات عبد الناصر عن حرب فلسطين سنة 1948» (باريس ـ بدون تاريخ).
- عبد الستار، إبراهيم «كارثة العرب في فلسطين» (بدون تاريخ).
- عبد الله، ملك الأردن «التكملة» (لندن ـ 1978).
- أبو غربية، بهجت «في خدام النضال العربي الفلسطيني: مذكرات المناضل بهجت أبو غربية، 1916 ـ 49» (بيروت ـ 1993).
- أبو لغد، إبراهيم «تحول فلسطين» (إيفانستون، إيلينوي، 1971).
- أبو منصور، فضل الله «أعاصير دمشق» (بيروت ـ 1959).
- أبو نوار، معن «في سبيل القدس» (عمان ـ 1968).
- إدورنو تيودور «مينيما موراليا» (نيويورك ولندن ـ 1989).
- أحمد فوزي «عبد السلام محمد عارف» (بغداد ـ 1989).
- العلمي، موسى «عبرة فلسطين» (بيروت 1949).
- علي، فالح خالد «الحرب العربية ـ الإسرائيلية 1948 ـ 1949 وتأسيس إسرائيل» (بيروت ـ 1982).
- علوش، ناجي «العمليات الحربية في فلسطين» (بيروت ـ 1968).
- أنون «العمليات الحربية في فلسطين سنة 1948» (القاهرة، 1961).

- العقاد، صلاح «قضية فلسطين: المرحلة الحرجة، 1945 ـ 1956» (القاهرة ـ 1968).
- العارف، عارف «النكبة» 5 مجلدات (بيروت، 1956 ـ 61).
- أرسلان، عادل «مذكرات الأمير عادل أرسلان: المستدرك 1948» تحرير يوسف ايبش 3 مجلدات (بيروت ـ 1994).
- العظم، خالد «مذكرات خالد العظم» (بيروت ـ 1972).
- البدري، حسن «الحرب في أرض السلام: الجولة العربية ـ الإسرائيلية 1947 ـ 1949» (بيروت ـ 1976).
- «التعاون العسكري العربي» (الرياض ـ 1982).
- البخيت، محمّد عدنان، هند أبو شعر، ونواف رجا السوارية «الوثائق الهاشمية: أوراق عبد الله بن الحسين» المجلد الخامس، «فلسطين سنة 1948» (عمان 0 1995).
- البرازي، محسن «مذكرات محسن البرازي 1947 ـ 1949» تحرير خيرية قاسمية (بيروت ـ 1994).
- بار ـ جوزيف، أوري «أفضل الأعداء: إسرائيل وشرق الأردن في حرب 1948» (لندن ـ 1987).
- بشير، سليمان، «جذور الوصاية الأردنية» (القدس ـ 1980).
- بطاطو، حنا «الطبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية في العراق» (برنستون ـ نيوجيرسي ـ 1982).
- بووير، يهودا «تاريخ الهولوكوست» (نيويورك ـ 1982).
- بن غوريون، دافيد «مذكرات الحرب ـ حرب الاستقلال، 1948 ـ 1949» 3 مجلدات، تحرير غيرشون ريفين والحانان أوري، (تل أبيب ـ 1982).
- «إعادة ولادة إسرائيل ومصيرها» (نيويورك ـ 1954).
- بنيامين من توديلا «برنامج الرحلة» تحرير م. ن. ادلر (لندن ـ 1907).
- بن تزفي، إسحق «السكان الدروز في إسرائيل» مجلة الاستكشاف الإسرائيلية 4/2 (1954) 65 ـ 76.

obeikandi.com

- برنادوت، فولك «إلىٰ القدس» ترجمة جوان بولمان (لندن ـ 1951).
- بلانك، حاييم «خصوصية الدروز: جوانب حديثة لمشكلة قديمة» شؤون الشرق الأَوسط 3/ 11 (1952) 315 ـ 21.
- بونقلة، ن. أن. «القوَّات الخاصة: المجندين من الفئات الدينية والإثنية، 1916 ـ 1946» مجلة الشرق الأَوسط عدد 25 (رقم 1993) 654 ـ 60.
- البديري، هند أمين «أرض فلسطين: بين المزاعم الصهيونية وحقائق التاريخ» (القاهرة ـ 1992).
- بيرك الثالث، إدموند «الصراع والبقاء في الشرق الأَوسط الحديث» (بيركلي، كاليفورنيا، 1993).
- كولينز، لاري ودومينيك لابيير «واقدساه» (نيويورك 1972).
- دباغ، مصطفى مراد «بلادنا فلسطين» 10 مجلدات (بيروت، 1965 ـ 1976).
- دانين روبرت «صعود وهبوط الإشراف على الأَسلحة في الشرق الأَوسط، 1947 ـ 1955: مشاورات الدول الكبرى، والتنسيق والتنافس» (أطروحة دكتوراه، جامعة أكسفورد، 1999).
- دروزة، محمد عزّت «القضية الفلسطينيَّة في مختلف مراحلها» (بيروت ـ 1959).
- دوران مايكل «القومية العربية قبل عبد الناصر: سياسة القوى المصرية والقضية الفلسطينيَّة» (نيويورك 1999).
- دوماني، بشارة «إعادة اكتشاف فلسطين: التجار والفلاحون في جبل نابلس، 170 ـ 1900» (بيركلي كاليفورنيا، 1995).
- دووير، جون «حرب بلا رحمة: السباق والقوة في حرب المحيط الهادي» (لندن 1986).
- دانكلمان، بن «الولاء المزدوج: سيرة حياة» (نيويورك 1976).
- أيزنبرغ، لورا «عدو عدوي: في بداية التصور الصهيوني 1900 ـ 1948» (ديترويت، ميتشغان، 1994).
- إيليوت، ماتيو «العراق المستقل: النظام الملكي والنفوذ البريطاني 1941 ـ 1958» (لندن 1996).

obeikandi.com

- البيليغ، تزفي «المفتي الأكبر» (تل أبيب 1989. المفتي الأكبر: الحاج أمين الحسيني، مؤسِّس الحركة الوطنية الفلسطينيَّة) (لندن ـ 1993).
- «لماذا لم تنشأ فلسطين المستقلة في سنة 1948؟». الدورية المقدسية عدد 50 (1989) 3 ـ 22.
- ايبل، مايكل «الصراع الفلسطيني في تاريخ العراق الحديث» (لندن ـ 1984).
- ايبشتين، الياهو «الشعب الدرزي ـ السكان الدروز في فلسطين ـ صداقة تقليدية مع اليهود» مجلة فلسطين والشرق الأوسط الاقتصادية العدد 29 (1939) 162 ـ 67.
- ايشيل سادوك، «لواء كارميلي في حرب الاستقلال» (تل أبيب 1973).
- فلاح، سلمان «تاريخ المستوطنات الدرزية في فلسطين خلال العهد العثماني» تحرير موشي ماعوز في مجلة دراسات حول فلسطين خلال العهد العثماني (القدس 1975) الصفحات 31 ـ 48.
- فرج، رجا سعيد «دروز فلسطين في فترة الانتداب البريطاني» (داية الكرمل ـ 1991).
- فنكلشتاين، نورمان «الخيال والواقع في الصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني» (لندن ـ 1995).
- «أساطير قديمة وجديدة» مجلة دراسات فلسطينيَّة 21/ 1 (1991) 66 ـ 89.
- فرو، قيس «تاريخ الدروز» (لايدن 1992). الدروز في الدولة اليهودية (لايدن 1999).
- فلابان، سمحا «ولادة إسرائيل: أساطير وحقائق» (نيويورك 1987).
- غات، موشيه «الخروج اليهودي من العراق 1948 ـ 1951» (لندن 1996).
- جلبير، يواف «الدروز واليهود في حرب 1948» دراسات الشرق الأوسط العدد 31 (1995) الصفحات 464 ـ 460. العلاقات اليهودية ـ الشرق أردنية، 1921 ـ 1948 (لندن ـ 1997).
- الغوري، أمين «المؤامرة الكبرى واغتيال فلسطين» (القاهرة 1955).
- غلوب، جون باغوت «جندي مع العرب» (لندن 1957).

- غرين، ستيفن «الانحياز: علاقات أمريكا السرية مع إسرائيل التي تنزع إِلىٰ الحرب» (نيويورك 1984).
- حاييم، سلفيا «القومية العربية» (بيركلي كاليفورنيا ـ 1962).
- هاركابي، يهوشافات «المواقف العربية من إسرائيل» (القدس 1972).
- الحسني، عبد الرزَّاق «تاريخ الوزارات العراقية» (بيروت ـ 1982).
- الهاشمي، طه «مذكرات طه الهاشمي» حرّرها خلدون ساطع الحصري (بيروت 1978).
- هيكل، محمد حسنين «المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل» (القاهرة 1996).

«العروش والجيوش: كذلك انفجر الصراع في فلسطين» (القاهرة 1998).
- هيكل، محمد حسنين «مذكرات في السياسة المصرية» (القاهرة ـ 1978).
- الهندي، هاني «جيش الإنقاذ» (بيروت ـ 1974).
- حتي، فيليب «أصل الشعب والديانة الدرزيين، مع مقتطفات من كتابات مقدسة» (نيويورك، 1928).
- هوبسبوم، أ. ج. «الأمم القومية منذ عام 1780: برنامج، أسطورة وحقيقة» (كامبردج 1990).
- هوبسبوم، اريك وتيرنس رينجر «ابتكار التقليد» (كامبردج 1984).
- هوف، فريدرك «خط حزيران (يونيو) 4، 1967» مجلة ميدل إيست إنسايت (عدد أيلول ـ سبتمبر 1999).
- حوراني، ألبرت «الإصلاح العثماني وسياسة الوجهاء» في مقالة و. بولك ور. تشمبرز «بدايات التحديث في الشرق الأَوسط: القرن التاسع عشر» (شيكاغو البنوي، 1978) الصفحات 41 ـ 68.
- هوريفتش، ج. مقالة في مجلة الشرق الأَوسط وشمال أفريقيا في السياسة العالمية: سجل وثائقي، مجلدان (نيوهارفن، كونكتكت، 1975 ـ 1979).
- الحسيني ـ محمَّد أمين «حقائق عن قضية فلسطين» (القاهرة 1956).
- إلان، أميتسور «أصول سباق التسلّح العربي الإسرائيلي: الأَسلحة، الحظر، القوة

العسكرية والقرار في حرب فلسطين سنة 1948» (بيزينغتوك، 1996).
- حكومة العراق «تقرير لجنة التحقيق النيابية في قضية فلسطين» (بغداد ـ 1949).
- دولة إسرائيل «وثائق سياسية ودبلوماسية، كانون الأَول (ديسمبر) 1947 ـ أيار (مايو) 1948» (القدس ـ 1979).
- الجبوري، صالح صائب «محنة فلسطين وأسرارها السياسية والعسكرية» (بيروت ـ 1970).
- كنفاني، غسان «ثورة 1936 ـ 1939 في فلسطين: خلفيات وتفاصيل وتحليل» (بيروت ـ 1974).
- كارش، افرايم «اختلاق التاريخ الإسرائيلي: المؤرخون الجدد» (لندن ـ 1997).
- كيالي، أ. و. «فلسطين: تاريخ حديث» (لندن ـ 1978).
- كدوري، إيلي «المذكرات السياسية العربية ودراسات أخرى» (لندن ـ 1974).
«الخلاف بين المسلمين واليهود في العراق» في مقالة م. كوهين وأ. يوداوتش «اليهود بين العرب: اتصالات وحدود» (برينستون نيوجيرسي ـ 1989) الصفحات 21 ـ 63.
- خلف، عيسى «السياسة في فلسطين: الحقائق العربية والتفكُّك الاجتماعي 1939 ـ 1948» (الباني نيويورك ـ 1991).
- خالدي، رشيد «الهوية الفلسطينيَّة: تشكّل الوعي الوطني الحديث» (نيويورك ـ 1997).
- خالدي، وليد «كل ما بقي: القرى العربية التي احتلتها إسرائيل وأفرغتها من سكانها في سنة 1948» (مدينة واشنطن ـ 1992).
دير ياسين (بيروت ـ 1998).
«من الملاذ إِلىٰ الفتح: قراءات في الصهيونية مشكلة فلسطين حتى سنة 1948» (بيروت ـ 1971).
«خمسون عاماً على حرب 1948، أولى الحروب الصهيونية العربية» (بيروت ـ 1998).
«خمسون عاماً على تقسيم فلسطين 1947 ـ 1997» (بيروت 1998).

«الخطة دالت: الخطة الرئيسية للاستيلاء على فلسطين» مجلة دراسات فلسطينيَّة 18/ 1 (1988) 4 ـ 37.
«وثائق مختارة حول حرب فلسطين سنة 1948» مجلة دراسات فلسطينيَّة 27/ 3 (1998) 60 ـ 105 «الصهيونية في مئة عام، 1897 ـ 1997» (بيروت ـ 1998).
ـ خوري، يوسف «المشاريع المهداوية العربية 1913 ـ 1989» (بيروت ـ 1988).
ـ الكيلاني، هيثم «الاستراتيجيات العسكرية في الحروب العربية الإسرائيلية 1948 ـ 1988» (بيروت ـ 1999).
ـ كيرك، جورج «الشرق الأَوسط 1945 ـ 1950» (لندن 1954).
ـ كولبرغ، إيتان «بعض الآراء الشيعية الإمامية في التقية» مجلة الجمعية الأمريكية الشرقية، العدد 95 (1975) 395 ـ 402.
ـ كورين، داڤيد «التحالف الصامد» (تل أبيب ـ 1991).
ـ كبة، محمد مهدي «مذكراتي» (بيروت 1965).
ـ كورتزمان، دان «التكوين 1948: الحرب العربية ـ الإسرائيلية الأولى» (لندن ـ 1972).
ـ لانديس، جوشوا «القومي وسياسة الزعامة: انهيار سورية الجمهورية، 1945 ـ 1949» (أطروحة دكتوراه، جامعة برنستون 1997).
«الشيشكلي والدروز: الدمج والعناد» في كتاب ت. فيليب وب. شابلر «الأرض السورية: عمليات التوحّد والتفتّت في بلاد الشام من القرن الثامن عشر إِلىٰ القرن العشرين» (شتوتغارت ـ 1998) الصفحات 369 ـ 95.
ـ لايش، هارون «التقية عند الدروز» دراسات آسيوية وأفريقية 19/ 13 (1985) 245 ـ 281.
ـ ليش، آن موزلي «السياسة العربية في فلسطين، 1917 ـ 1939: إحباط حركة وطنية» (إيتاكا، نيويورك ـ 1979).
ـ لينينبرغ، حاييم «استعدادات عرب فلسطين العسكرية 1945 ـ 1948» (بيركلي، كاليفورنيا، 1996).
ـ لورش، نيتانيل «تاريخ مقارن للصراع العربي ـ الإسرائيلي» مجلة «ريفو

إنترناسيونال ديستوار ميليتير ـ المجلة الدولية للتاريخ العسكري» العدد 42 (1979) 148 ـ 62.

- لوستيك، جان «التاريخ الإسرائيلي: من يختلق ماذا؟» في مجلة (سورفاينال) العدد 39 (1997) 136 ـ 66.

- مكارتي، جوستين «سكان فلسطين: إحصاء السكان في أواخر العهد العثماني وفي زمن الانتداب» (نيويورك ـ 1990).

- ماكدوال، ديڤيد «تاريخ حديث للأكراد» (لندن ـ 1998).

- الماضي، منيب وسليمان موسى «تاريخ الأردن في القرن العشرين» (عمان ـ 1959).

- المجالي، هزاع «مذكراتي» (عمان ـ 1960).

- ماعوز، موشي «سورية وإسرائيل: من الحرب إلىٰ صنع السلام» (نيويورك ـ 1995).

- مارلو، جون «ثورة في فلسطين» (لندن ـ 1948).

- مصالحة، نور «نقد موجّه إلىٰ بني موريس» مجلة دراسات فلسطينيَّة 21/ 1 (1991) 90 ـ 97.

«طرد الفلسطينيين: مفهوم الترانسفير في الفكر السياسي الصهيوني، 1882 ـ 1948» (مدينة واشنطن ـ 1992).

- مطر، فيليب «مفتي القدس: الحاج أمين الحسيني والحركة الوطنية النظاميَّة» (نيويورك ـ 1998).

- ماتيوز، ولدون «حزب الاستقلال العربي في فلسطين، 1927 ـ 1934» (أطروحة دكتوراه، جامعة شيكاغو، 1998).

- ماير، توماس «وحدة العمل العربي وقضية فلسطين، 1945 ـ 48» دراسات شرق أوسطية العدد 22 (1986) 331 ـ 49.

«غزو مصر لفلسطين 1948» دراسات شرق أوسطية العدد 22 (1986) 20 ـ 35.

- مائير، غولدا «حياتي» (لندن ـ 1975).

- موريس، بني «1948 وما بعد: إسرائيل والفلسطينيون» (أُكسفورد ـ 1994).

«نظرة جديدة على الوثائق الصهيونية المركزية» البايم 12 (1996) 93 ـ 103.
«عودة إلىٰ عملية حيرام: تصحيح» مجلة دراسات فلسطينية 28/ 2 (1999) 68 ـ 76.
«إعادة اختلاق 1948» مجلة دراسات فلسطينية 27/ 2 (شتاء 1998).
«رد على فنكلشتاين ومصالحة» مجلة دراسات فلسطينية، 1: 21 (1991) 98 ـ 114.
«ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين 1947 ـ 1949» (كامبردج ـ 1988).
ـ موسى، سليمان «أيام لا تُنسى» (عمان، 1982) وطبعة ثانية (1997).
ـ مصطفى، حسن «التعاون العسكري العربي» (بيروت 1964).
ـ نشاشيبي، ناصر الدين «صوت القدس الآخر: راغب نشاشيبي والاعتدال في السياسة الفلسطينيَّة، 1920 ـ 1948» (أكزيتر، 1990).
ـ ناتان، روبرت، أوسكار غاس ودانييل كريمر «فلسطين: مشكلة ووعد». دراسة اقتصادية (مدينة واشنطن 1946).
ـ نزال، نافذ «الخروج الفلسطيني من الجليل، 1948» (بيروت ـ 1978).
ـ نيفو، جوزيف «الملك عبد الله وفلسطين: طموح إقليمي» (لندن، 1996).
ـ أوبالانس، ادغار «الحرب العربية ـ الإسرائيلية 1948» (لندن ـ 1956).
ـ منظمة التحرير الفلسطينيَّة «أوراق حكومة عموم فلسطين» (بيروت ـ بدون تاريخ).
ـ بالومبو، مايكل «الكارثة الفلسطينيَّة» (لندن ـ 1987).
ـ بابيه إيلان «بريطانيا والنزاع العربي ـ الإسرائيلي 1948 ـ 1951» (لندن ـ 1988).
«صنع النزاع العربي ـ الإسرائيلي 1947 ـ 1951» (لندن ـ 1992).
«سير اليك كيركبرايد وصنع شرق الأردن الأكبر» دراسات آسيوية وأفريقية العدد 23 (1989) 43 ـ 70.
ـ بارسونز، ليلى «الدروز بين فلسطين وإسرائيل، 1947 ـ 1949» (لندن 2000).
«الدروز واليهود وخلق تاريخ مشترك» رون نتلر وسها تاجي الفاروقي «لقاءات إسلامية ـ يهودية: تقاليد فكرية وسياسة حديثة» (لندن ـ 1998) 131 ـ 48.

opeikanan.com

«دروز فلسطين في الحرب العربية ـ الإسرائيلية 1947 ـ 49» دراسات إسرائيلية 2/1 (1997) 72 ـ 93.

- قاسمية، خيرية «الرعيل العربي الأول: حياة وأوراق نبيه وعادل العظمة» (لندن ـ 1991).
- القصري، محمد فايز حرب فلسطين سنة 1948» المجلد الثاني (دمشق ـ 1962، والقاهرة 1971).
- القاوقجي، فوزي «فلسطين في مذكرات فوزي القاوقجي» المجلد الثاني، تحرير خيرية قاسمية (بيروت ـ 1975).
- الريس، منير «الكتاب الذهبي للثورة الوطنية» (بيروت ـ 1977).
- ريئلر، يتسحاق «الأوقاف الإِسلامية في القدس في زمن الانتداب البريطاني» (لندن ـ 1996).
- روبيتشيك، مارسيل «صدى النفير» القوّات العسكري وقوّات الشرطة السابقة في فلسطين وشرق الأردن، 1915 ـ 1967» (القدس ـ 1974).
- الروسان، ممدوح «معارك باب الواد» (عمان ـ بدون تاريخ).
- «العراق وقضايا الشرق العربي القومية» (بيروت ـ 1979).
- صفا، محمد «أسرار الانقلابات في سورية: تصحيح للزعيم المعلى أكرم الحوراني» (غير مطبوعة، وبدون تاريخ).
- سعيد، إدوار «تاريخ حديث للأردن» (لندن ـ 1993).
- سعيد، خليل «تاريخ الجيش العراقي في فلسطين 1948 ـ 1949» (بغداد، 1969).
- صليبي، كمال «تاريخ حديث للأردن» (لندن ـ 1993).
- صايغ، أنيس «الهاشميون وقضية فلسطين» (بيروت ـ 1966).
- صايغ، روزماري «أعداء زيادة عن الحد» (لندن ـ 1994).
- صايغ، يزيد «الكفاح المسلّح والسعي لقيام دولة: الحركة الوطنية الفلسطينيَّة 1949 ـ 1993» (أُكسفورد، 1997).
- شيتمان، جوزف «المفتي والفوهرر: صعود وسقوط الحاج أمين الحسيني» (نيويورك، 1965).

- شلايفر، س. عبد الله «حياة وفكر عز الدين القسَّام» الدورية الإسلامية 22 (1979) 61 ـ 81.
- شولتز، كيرستين «دبلوماسية إسرائيل السرية في لبنان» (لندن ـ 1998).
- سيل، باتريك «الصراع على سورية: دراسة للسياسة العربية بعد الحرب، 1945 ـ 1958» (لندن ـ 1965 وطبعة جديدة لندن 1986).
- سيلا، افراهام «كتابة التاريخ العربي لحرب 1948: السعي لاكتساب الشرعية» تحرير لورنس ج. سيلبرشتاين «منظورات جديدة في التاريخ الإسرائيلي: السنوات الأولى للدولة» (نيويورك، 1991) الصفحات 124 ـ 154.
- سيغيف، توم «1949: الإسرائيليون الأوائل» (نيويورك 1986).
- سيقلي، مي «حيفا: تحول المجتمع العربي 1918 ـ 1939» (لندن ـ 1995).
- شاهين، حنا «المواجهة الإسرائيلية ـ العربية الأولى، 1948 وأثرها على وضع الشعب الفلسطيني» شؤون فلسطينيَّة العدد 109 (كانون الأَول (ديسمبر) 1980).
- شكيب، إبراهيم «حرب فلسطين 1948، رؤية مصرية» (القاهرة، 1986).
- شاييرا، أنيتا «السياسة والذاكرة الجماعية: النقاش حول المؤرخين الجدد في إسرائيل» مجلة «تاريخ وذاكرة» العدد 7 (1995) 9 ـ 40.
- الشرع، صادق «حروبنا مع إسرائيل 1947 ـ 1973» (عمان ـ 1997).
- شاريت، موشي «بشعار هاأموت ـ عند بوابة الأمم 1946 ـ 1949» (تل أبيب ـ 1958).
- الشريف، كامل إسماعيل «الإخوان المسلمون في حرب فلسطين» (القاهرة ـ 1951).
- شلايم، آفي «تواطؤ عبر نهر الأردن: الملك عبد الله والحركة الصهيونية وتقسيم فلسطين» (أكسفورد ونيويورك، 1988).

«سياسة التقسيم» (أكسفورد 1998).

«نقاش حول 1948» العدد 27 (1995) 287 ـ 304.

«صعود وسقوط حكومة عموم فلسطين في غزّة» مجلة دراسات فلسطينيَّة 20/ 1 (1990) 37 ـ 53.

obeikandl.com

- سيفان، إيمانويل «أساطير سياسة عربية» (باريس 1995).
- سميث، بربارة «جذور الفصل في فلسطين: السياسة الاقتصادية البريطانية 1920 ـ 1929» (سيراكوز، نيويورك 1995).
- شتيرنهل، زئيف «الأساطير المؤسسة لإسرائيل: القومية، والاشتراكية وصنع الدولة اليهودية» (برنستون، نيوجيرسي، 1998).
- تادروس، نهى «من مذكرات الماضي، عيسى العيسى» (صحفي فلسطيني 1978 ـ 1950) أطروحة دكتوراه، (المعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية، باريس، 1999).
- التل، عبد الله «كارثة فلسطين» (القاهرة 1958 وطبعة جديدة 1959).
- طايع، أحمد فرح «صفحات مطوية عن فلسطين» (القاهرة 1967).
- تيفيت، شابتاي «اتهام إسرائيل بالخطيئة الأصلية» تعليق، (أيلول ـ سبتمبر، 1989).
- تسور، جاكوب «الصهيونية: ملحمة حركة تحرير وطنية» (نيويورك ـ 1977).
- وايزمان، حاييم «التجربة والخطأ: سيرة ذاتية بقلم حايم وايزمان» (لندن ـ 1949).
- ويلون، ماري «الملك عبد الله وبريطانيا وصنع الأردن» (كامبريدج 1987)..
- الونداوي، مؤيد إبراهيم «العلاقات الإنكليزية ـ العراقية 1945 ـ 1958» أطروحة دكتوراه (جامعة ردينغ 1989).
- يزبك، محمود «حيفا في أواخر العهد العثماني 1864 ـ 1914: مدينة إسلامية في مرحلة تحوّل» (لايدن 1998).
- زعيتر، أكرم «الحركة الوطنية الفلسطينيَّة، 1935 ـ 1939: يوميات أكرم زعيتر» (بيروت ـ 1980).
- زريق، قسطنطين «معنى النكبة» (بيروت 1948) ترجمة ر. بيلي وايندر (بيروت ـ 1956).

obeikandi.com